محمد محمود القاضي

كمال البشر

مسيرة وتاريخ



الكتاب : كمال بشر «مسيرة وتاريخ»

المؤلف : محمد محمود القاضي

رقم الإيداع : ٢١٦٩٩ / ٢٠٠٥

تاريخ النشر : ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 866 - 3

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

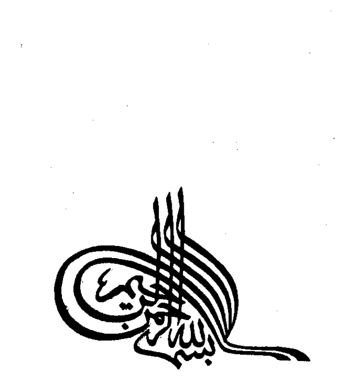
ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣



كمال النشر

سيرة وتاريخ


بسم الله الرحمن الرحيم

واجهة الكتاب

الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام علـى إمـام المتقين، وسيد المرسلين محمد بن عبد الله، وعلى آله وصـحبه، ومن سار على هديه، واستن بسنته إلى يوم الدين، وبعد..

فهذا كتاب عن علم من أعلام اللغة العربية، وهب حياتـه كلها لها، حاملا لواءها، ومعلما لها، ومدافعا عنها، فصار رمزا لها، وصارت هى علامة له، فأصبح هو واللغة العربية وجهين لعملة واحدة.. إنه الـدكتور كمـال بشـر عـالم اللغـة العربيـة، ونائب رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة..

وكمال بشر نموذج صادق لمـا يجـب أن يكـون عليـه عـالم اللغة العربية، فهو معتز بنفسه وبلغته وبقوميته، معترف بفضل أساتذته، ومحب لتلاميذه، مخلص أمين صادق، ودود متواضـع قوى حازم، إنه الأستاذ الإنسان، والإنسان الأستاذ.

وفى هذا الكتاب نعيش مع الدكتور كمال بشر، ونسبح فى بحر حياته، فنلتقط منه بعض الدرر، ونضعها أمام الجميع زينة للناظرين، وهدى لأهل العلم المخلصين، ولذلك تحدثت عن ولادته ونشأته وتعلمه وأعماله، وشيوخه وتلامذته، ومواقفه وإسهاماته وآرائه، وصفاته وأخلاقه. وعرفت بكتبه وبحوثه العلمية تعريفا موجزا مختصرا.

وفى النهاية أسأل الله سبحانه أن يوفقنا إلى كل خير، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل به.

محمد محمود القاضى

المحتويات

الموضوع	الصفحة
٧. خاطرات مؤتلفات فى اللغة والثقافة	١١٢
٨. فن الكلام	١٢٤
٩. مجمعيات	١٤١
١٠. التفكير اللغوى بين القديم والجديد	١٤٣
١١. إذاعيات	١٤٨
١٢. دراسات في علم المعنى	١٤٩
١٣. منهج في التطور اللغوي في ضوء علم اللغة التاريخي	١٥٠
ملحق الصور	١٥١

الفصل الأول

لمحات من حياته

المولد والنشأة ومسيرة الحياة

أشرقت شمس يوم الحادى وعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٢١م، التاسع عشر من شهر الله المحرم عام ١٣٤٠هـ، على خبر سعيد فى بيت الشيخ محمد على بشر بقرية محلة دياي[١]، وهو ولادة طفل جديد لصاحب البيت، وعلى الرغم من أن هذا الطفل الجديد لم يكن أول أطفال البيت إلا أن الفرحة به كانت غامرة، والحفاوة به كانت شديدة، فوالد الطفل رجل على قدر من التدين والإيمان يجعله يتعامل مع ولادة أى طفل فى بيته على أنه هبة ورزق من الله ينبغى أن يشكر الله عليه، وكون هذا الطفل ذكرا فهذا سبب آخر للفرحة فى بيئة تحب الذكور وترى فيهم الامتداد الطبيعى للحفاظ على اسم الأسرة وبقائها.

وسرعان ما اختار الشيخ لطفله الجديد اسم "كمال"، على اسم الأمير كمال الدين حسين[٢]، وحدث أنه كان يمر آنذاك فى يخته فى نهر النيل حيث تقع القرية على شاطئه، فكان هذا الطفل هو كمال

---

(١) تقع القرية على ضفاف نهر النيل فرع رشيد، وتتبع إداريا مركز دسوق التابع لمحافظة كفر الشيخ بجمهورية مصر العربية.

(٢) الأمير كمال الدين حسين ابن السلطان حسين كامل، وكان قد رفض أن يخلف أباه على عرش مصر.

بشر، وبذلك كتب لهذا الطفل منذ أول لحظات حياته حسن الطالع، بهذا الاسم الجميل عَلَمًا ولقبا.

الوالد:

الوالد قيمة عظيمة فى حياة كل إنسان، وقيمة الوالد فى حياة الدكتور بشر أكثر عمقا وأعظم أثرا، يقول بشر عن أثر والده فى حياته: "كان أبى فلاحا من الفلاحين الأصلاء ذوى المنزلة الاجتماعية والاقتصادية المرموقة فى القرية. وتعلمت منه الكثير من الأمور التى ما زلت أعيش بها إلى الآن، فقد رسخ لدى مبدأ الانتماء وحب العلم، كما أن له مواقف فى حياتى لا أنساها.. وكان يصحبنى دائما حتى صنع منى صديقا فى كل حله وترحاله، وفى وقت الفراغ كنت أجلس بجانبه على "الدكة" وأرى ما يصنع وما يقول وما يتعامل به مع الناس فأخذت شيئا من هذه القيم والمبادئ الأصيلة.

الحياة الريفية:

الإنسان ابن بيئته، ونشأة بشر الريفية لها دور كبير فى تكوينه وشخصيته، فهو يقول عن نفسه: أنا فى الأصل ابن فلاح.. وتربيت فى حجر والدى ووالدتى: فلاح عادى أصيل فى كل أنماط السلوك والتقاليد والأعراف، أشاركهم فى كل عمل يقومون به سواء فى الحقل أو فى المنزل، وظللت على هذه العادة إلى أن أتيت إلى

القاهرة..وكنت أرى والدى وهو يذهب كل يوم إلى حقله بعد أن يصلى الفجر ويقرأ سورتى يس والواقعة.. وعندما كنت أسأله عن سبب تبكيره فى الذهاب إلى الحقل، كان يقول لى: "الغيط بيفرح بصاحبه" .. هذه كلمة عظيمة وراءها معان عظيمة ودلالات عميقة..

وكان لاجتماع أفراد الأسرة جميعا كل يوم وقت الغداء على "الطبلية"(١) دور كبير فى تكوين الدكتور بشر، فهذا الاجتماع بمثابة مؤتمر يومى للأسرة تناقش فيه المشكلات وأحوال البيت والأسرة، فتنتقل الخبرات من الكبير إلى الصغير، ويتعلم الصغار كيف يدير الكبار أمور الحياة، ويواجهون المشكلات.. إنه مؤتمر يجسد المعنى الحقيقى للرباط الذى يجمع بين أفراد الأسرة المصرية، ولقد استمر هذا الأسلوب لسنوات طوال حتى صار بشر شابا يافعا.

كتاب القرية:

وبدأ الدكتور بشر رحلته فى طلب العلم من كتاب القرية، مثله كمثل الكثير من عظماء مصر الأوائل الذين كان الكتاب هو أول لبنة فى بنيانهم العلمى الشامخ، وكان ذلك فى العشرينيات تقريبا حوالى عام ١٩٢٧ – ١٩٢٨م، حين دفع به والده إلى كتاب الشيخ حسن فى قرية محلة دياى، وحاول بشر أن يحفظ القرآن على يدي الشيخ

(١) الطبلية كلمة تطلق على خوان يؤكل عليه، أرجله قصيرة بحيث ترتفع قليلا عن الأرض.

المذكور، ولكنه تركه بعد شهور قليلة لأسباب كثيرة منها قسوة زوجة الشيخ على الأولاد طلاب الكتاب. حيث كانت تطلب منهم أن يقوموا بأعمال خارجة عن عملية القراءة والكتابة فى القرآن الكريم، مثل جمع جريد النخل واستخلاص الخوص لصنع بعض الأدوات مثل "القفف" وما شابه ذلك.

المدرسة الأولية:

وبعد ذلك انتقل بشر إلى ما يسمى بالمدرسة الأولية، وكان ذلك حوالى سنة ١٩٢٨م، حيث كانت المدرسة تقع فى قرية "منية جناج" الملاصقة لمحلة دياي، وهى مدرسة أهلية لا تتبع الحكومة، وكان صاحبها رجلا غنيا، وخصص لها أوقافا للإنفاق عليها, ودرس فيها بشر ثلاث سنوات.

موعد مع ليلة القدر:

وبعد ذلك حدث أمر عجيب كان له أثر كبير فى حياة الدكتور بشر، حيث يقول الدكتور بشر عن هذا الأمر: "فى صيف من الأصياف كان والدى يجلس مع زوج عمتى وأنا أرعى البهائم بجوارهما أمام البيت، فسمعت والدى يقول لزوج عمتى: "نعمل إيه فى الولد ده يا شيخ على"، وكان الشيخ على من خريجى دار العلوم سنة ١٩١٨م، فقال "الشيخ على" جملة كتبت فى السماء ولازمتنى حتى صرت أحمل

درجة الليسانس، قال: "نخرجه من المدرسة الأولية ويذهب إلى كتاب الشيخ محمود ثم ندخله الأزهر، وبعد ذلك يذهب إلى دار العلوم".

وكان ما كان.. فقد أُخرج بشر من المدرسة الأولية إلى كتاب **الشيخ محمود طه** الذى كان شيخا عميقا عريقا حافظا مجيدا للقراءة والإقراء، وكان يقيم فى قرية (منية جناج).. وعلى يد هذا الشيخ أتم بشر حفظ القرآن الكريم فى تسعة أشهر، وكان لحفظ القرآن الكريم أعمق الأثر فى حياة الدكتور بشر، حيث رسخ فى نفسه حب اللغة العربية، واستقام لسانه بنطق أصواتها، وانطبعت فى ذهنه تراكيبها وقواعدها.

المعهد الابتدائى الأزهري بدسوق:

انتقل بشر إلى معهد دسوق الابتدائى الأزهرى عام ١٩٣٢م، وقضى فيه أربع سنوات كاملة، وكان ذلك فى مدينة دسوق، وكان طلاب المعهد الأزهري فى هذه المدينة يذاكرون دروسهم طوال اليوم فى **مسجد الشيخ إبراهيم الدسوقى**، حتى صلاة العشاء، ثم يأتى عامل المسجد ويطردهم خارج المسجد، فيذهبون إلى سكناهم للنوم، ولم يذاكر بشر بعد صلاة العشاء أبدا؛ وذلك لسبب بسيط فلم يكن فى سكنه كهرباء، وإنما كان عنده هو وزملاؤه فى السكن لمبة صغيرة تعمل بالكيروسين، تصدر ضوءا خافتا يجهد العين، فكانوا يستيقظون

كل يوم فى الفجر ويذهبون للصلاة فى المسجد، ويبدءون المذاكرة إلى أن يأتى موعد الدراسة، ولقد ظلت عادة النوم مبكرا والاستيقاظ فجرا ملازمة لبشر طوال حياته.

وكان من أساتذة بشر فى هذه المرحلة **الشيخ حفنى** حيث يروى بشر أن الشيخ المذكور فى الحصة الأولى فى المعهد الابتدائى فى درس النحو قال: يا أولاد هل معكم كراسات؟ قلنا له: لا يا شيخ.. نحن معنا الكتاب فقط. قال: لا، إننى حين أشرح يا أبنائى أقول كلاما خارج الكتاب وخارج المقرر فعليكم أن تكتبوا ما أقول، وأنشد:

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الواثقة

وكان الرجل يشرح ويخرج عن المقرر بفائدة عظيمة وعمق كبير.

ومن أساتذة المعهد كذلك **الشيخ عبد الرحمن جلال**، وكان يدرس السيرة والمطالعة، ولم ينس الدكتور بشر هذا الرجل طوال حياته، فقد كان أستاذا حصيفا متمكنا، وكان مقرر مادة المطالعة آنذاك كتاب "نهج البلاغة" المنسوب للإمام على بن أبى طالب، والذى يعجز الكثيرون من طلاب الدراسات العليا الآن عن قراءته بصورة صحيحة -على حد تعبير الدكتور بشر-، يقول بشر: وهذا الكتاب ما زال عندى بالمكتبة وبه بخط يدى التعليقات التى كنت أسمعها من هذا الشيخ العظيم الذى علمنا كيف نؤدى الكلام نطقا؛ أصواتا ونغمات، وموسيقى آدائية.

ولذلك يقول الدكتور بشر عن أهمية المطالعة الجهرية: "إنها العامل الأساسى لاكتساب اللغة، أية لغة على وجه الأرض".

ولقد قدم الشيخ عبد الرحمن جلال لمسة طيبة لما يجب أن يكون عليه الأستاذ مع تلامذته، حيث قام الشيخ بزيارة الدكتور بشر عندما رجع من إنجلترا حاملا شهادة الدكتوراة، وهذا تواصل عجيب من هذا الأستاذ المعلم مع تلاميذه، ولعل هذا الموقف كان ماثلا فى ذهن الدكتور بشر وتعلم منه بعد ذلك كيف يعامل تلاميذه، ويتقرب منهم، ويتخذهم أصدقاء.

المعهد الثانوي الأزهري (الإسكندرية – طنطا):

ثم انتقل بشر بعد ذلك إلى المعهد الثانوى الأزهرى بالإسكندرية، ولقد اختار الوالد هذا المعهد لابنه مفضلا إياه على معهد طنطا الذى تتبعه المنطقة بناء على نصيحة تلقاها من أحد الأصدقاء بألا يبعث بابنه إلى معهد طنطا؛ لأن الطلبة فيه يغلب عليهم الشغب والمظاهرات.

يقول بشر عن بدايات التحاقه بمعهد الإسكندرية: "كان الذهاب إلى الإسكندرية مهمة عسيرة فى ذلك الوقت: كيف يصل الولد وكيف يعيش؟ وماذا يأكل وغير ذلك؟ اصطحبنى والدى إلى الإسكندرية عن طريق دمنهور، ونزلنا فى المحطة فى حى محرم بك، وكان علينا أن نذهب إلى المكان الذى سوف أعيش فيه "المسافر خانة" وهو سراية بجوار قصر

رأس التين، والمسافة بين رأس التين ومحرم بك كبيرة جدا لا يمكن أن يعبرها الانسان على قدميه ومعه الزوادة، وهى قفة كبيرة جدا مثقلة بما فيها من الطعام الريفى، فطلب والدى من صاحب أحد "الحناطير" توصيلنا ولكنه طلب عشرة قروش وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت فرفض والدى، ووجد عربة خضار خالية يجرها صبى فطلب منه أن يوصلنا فطلب قرشا واحدا، فوافق والدى وأجلسنى مع القفة على العربة التى يبيع عليها هذا الصبى الخضار، وجرها الصبى ووالدى يمشى على الأرض طوال هذه المسافة.هذه لفتة أبوية لا أنساها طوال حياتى".

وكانت "المسافر خانة" هى مكان الإقامة والدراسة معا، حيث كانت قاعات الدرس فى الدور الثانى، وحجرات الإقامة فى الدور الأول، وكعادة طلاب الأزهر كان بشر يذهب كثيرا إلى مسجد ياقوت العرش القريب من "المسافر خانة" لمذاكرة دروسه، وقضي بشر فى الإسكندرية سنتين كاملتين، وفى نهاية السنة الثانية توفى الوالد حيث كان بشر يستعد لامتحان السنة الثانية، فتركت وفاة الوالد فى نفسه حزنا عميقا.

ومن أساتذة معهد الإسكندرية الذين تأثر بهم الدكتور بشر **الشيخ محمد الديب** أستاذ الفقه الحنفى، وكان مخلصا صادقا أمينا، وكان يقوم بأمر فى غاية الأهمية مع طلابه، فالدرس الذى يشرح يُقرأ متنه جهرا فى القاعة، وكان الشيخ الديب كثيرا ما يختار طالبه النابه بشر لقراءة الدرس المشروح، ويقول الدكتور بشر عن هذا الموقف:

وكأنى أسمع صدى صوت الشيخ محمد الديب وهو يقول لى فى قاعة الدرس: اقرأ يا كمال. فقد تعلمت من هذه القراءة الجهرية الثقة فى النفس، كما كان هذا دورا آخر على تعويد اللسان على النطق السليم، وعلى تفعيل هذا السحر المسمىَ جهاز النطق.

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية، انتقل بشر إلى معهد طنطا الذى رأى والده ألا يلحقه به فى البداية، فقضى هناك ثلاث سنوات كان يتردد فيها على مسجد السيد البدوى لمذاكرة دروس العلم حتى حصل على الشهادة الثانوية من الأزهر. وكان ترتيبه العاشر على مستوى القطر المصرى.

ومن أساتذة المعهد الذين كان لهم أثر فى حياة بشر **الشيخ على رسلان** أستاذ النحو، وكان ضعيف البصر، ولكنه قوى البصيرة عميق العقل والذهن ومسيطرا على تخصصه، وكان النحو آنذاك يدرس فى الحصة الأولى، ولعل اختيار الحصة الأولى لدروس النحو أمر له مغزى عظيم، فالنحو يحتاج إلى صفاء الذهن، وزيادة النشاط، وهو ما يكون فى أوقات النهار الأولى، ويقول الدكتور بشر عن أهمية هذا الأمر: "يا ليت المسئولين عن التعليم فى بلادنا يفطنون إلى هذا الأمر، ويخصصون الحصص الأولى للنحو بدلا من وضعه فى ذيل الحصص اليومية والتى يكون الذهن وقتها مثقلا، والتركيز فى أضعف حالاته".

وكان المقرر فى النحو كتاب "أوضح المسالك" لابن هشام، وهو كتاب أشبه بعناوين قواعد اللغة العربية، أى لا يدخل فى التفاصيل وإنما يأتى بالأساسيات والجوهريات، حتى إن ابن هشام نفسه حينما يريد الائتناس بأقوال ابن مالك فى الألفية لا يأتى إلا بالنقطة المعينة المتصلة بهذه القاعدة فقط. يقول بشر: "فى حصة النحو هذه كل يوم، عندما يأتى الشيخ من منزله يبدأ الدرس بتحية الطلاب، ثم يلقى عليهم عبارة أو آية أو حديثا أو بيت شعر، ويقول: من يعرب يا أولاد؟ فكنت من المبادرين للقيام بهذه المسئولية.

ومن هذه اللحظة بدأ ميلي للدراسات اللغوية، وفى إحدى المرات قال له الشيخ على رسلان: أنت يا كمال لا يكفيك هذا الكتاب.. اقرأ التصريح. والتصريح هو شرح للتوضيح وضعه الشيخ خالد الأزهرى، وهو كتاب كبير من عدة أجزاء وفيه شرح الشرح، فاستهوانى هذا الأسلوب فى الأخذ والرد والجدل والتعليق والإضافة والزيادة والتخطئة والتصويب.. إلخ، وبدأت ألتفت إلى اللغة بسبب هذه التجربة وهذه الخبرة.

ومن أساتذة معهد طنطا كذلك **الشيخ أحمد الخطيب**، أستاذ النحو، وهو ممن يذكرهم بشر بخير، فلقد كان الشيخ أحمد الخطيب بارعا واسع المعرفة بالنحو، يقول بشر عنه: أوصانا الشيخ الخطيب بأن نقرأ كتابا لم يكن فى ثانوية الأزهر آنذاك وهو كتاب "الأشمونى" وكان مقررا على الكليات فى ذلك الوقت، فعجل الرجل بنا لنقرأ هذا

الكتاب، فازداد حبى للنحو والدراسات اللغوية، وتعرفت حاشية الصبان وهى من أهم الحواشى فى النحو العربى على الإطلاق.

فى رحاب دار العلوم:

بعد حصول بشر على الشهادة الثانوية الأزهرية، بدأ الأهل والعشيرة يتشاورون فى اختيار المكان الذى يلتحق به لمواصلة تعليمه، والعجيب فى الأمر أن بشرا نفسه كان يرغب فى أن يكتفى بالثانوية، ويظل فى القرية، وخاصة أنه وإخوته كانوا صغارا، والعدد كبير.. فأصرت الأسرة على أن ينتقل إلى الدراسة العليا فى مكان ما، وكان أغلب الاتجاه إلى دار العلوم، كما قرر زوج عمته منذ سنوات، فأبى بشر أول الأمر، وطلب أن يدخل كلية أصول الدين لأنه كان مغرما بالعمامة والكاكولا (الزى الأزهرى) ولكن أقاربه أصروا على دار العلوم، وأحضر والد زميل له استمارات الالتحاق بدار العلوم ليدخلها هو وابنه محمد.

وتحت الضغط العائلى والمعارف تقدم بشر إلى دار العلوم التى كانت تحتاج إلى واسطة لدخولها، كما كان لها رهبة كبيرة فى نفوس الجميع حتى فى الريف، وكان لابد من دخول امتحانين؛ أحدهما تحريرى من يجتازه يدخل الامتحان الشفوى، وهو عبارة عن لقاء مع بعض الأساتذة، وأوصى بعض العارفين بشرا أن يقرأ كتب على

الجارم فى البلاغة والنحو الواضح لكى يستعد للامتحان، وشاء الله أن ينجح بشر ويدخل اللقاء الشفوى، وتعرف فيه بشر على المرحوم الأستاذ على حسب الله أستاذ الشريعة بالكلية آنذاك لأول مرة والذى كان له دور فى حياة بشر التعليمية.

والعجيب فى الأمر أن محمدا ابن الرجل الذى أحضر لبشر استمارات الالتحاق بدار العلوم رسب فى الامتحانات المؤهلة لدار العلوم.. ولكن هذا الزميل كان مصرا على دخول دار العلوم، فقضى سنة كاملة فى كلية الشريعة استعدادا للدخول فى العام القادم وبالفعل دخل دار العلوم بعد سنة من دخول بشر.

وقضى بشر فى دار العلوم أربع سنوات تحمل الكثير من الذكريات، وغرست فيه خلالها الكثير من قواعد بنيانه العلمى الراسخ.

ومن أساتذة دار العلوم الذين تركوا أثرا كبيرا فى نفس الدكتور بشر **الأستاذ على حسب الله**، يقول بشر عنه: كان الشيخ رحمه الله منضبطا يطلب أن تجيب بمنطقية وعقلانية لا بحفظ وإرسال الكلام إرسالا، فقد لاحظت فيه هذا، ولذلك سرت على نهجه حتى هذه اللحظة: أين تضع النقطة وأين تضع الفاصلة، وأين تبدأ؟ وكيف تجيب من نفسك إذا كنت مستوعبا؟ وأخذت منه كل هذا.

كان يدرس لنا علم التوحيد المسمى الآن بعلم الكلام، وهذا العلم من أصعب العلوم وما زال أصعبها حتى هذه اللحظة.. وكان عدد الناجحين ضئيلا لدرجة أن بعض الطلاب ظل يرسب فى هذه المادة حتى توفاه الله، أنا لا أنسى هذا. وفقنى الله وأخذت تقريبا الدرجة النهائية فى الامتحان التحريرى فما كان من الرجل إلا أن سأل عنى فى إدارة الكلية وأرسل لى خطابا على عنوانى فى القرية: أنا أريد أن أراك. فجئت إلى الكلية وقابلته فى الوقت الذى حدده، فقال: يا ابنى إنك أخذت درجة لم أعطها لأحد منذ ثلاثين سنة.. أريد أن أقدم لك هدية.. قلت: بكل الشكر. قال: هل اشتريت الكتاب؟ قلت: نعم. قال: فلتأخذ ثمنه. قلت: لا يا أستاذنا. فقال: إذن سأعطيك كتابا آخر هدية، وكتب عليه الإهداء صفحة كاملة فى أول الكتاب، منها كلمة لم أكن أعرفها حتى ذاك الوقت، وهى إلى التلميذ النابه، كنت أعرف كلمة "النبيه"، لكن كلمة النابه كانت أول مرة تدخل ذاكرتى، ومازال الكتاب فى دولاب أمى حتى هذه اللحظة التى نحن فيها محتفظا به مع بقية الأشياء الغالية.

ومن أساتذة الكلية كذلك الذين كان لهم دور فى حياة بشر الأستاذ **على السباعى** أستاذ النحو، وقد كان يتميز بطريقة جذابة عميقة فى تقديم مقرر النحو.

دار العلوم والأزهر:

كان الفرق بين الدراسة فى دار العلوم والأزهر ليس فى الكم وإنما فى الكيف؛ فالمادة الأزهرية راسخة فى الأذهان، ولكنها شبه جامدة فى أذهان الطلاب، أى كان الطلاب يستعيدونها حفظا، فصقلت دار العلوم هذه المواد أو حاولت أن تفسرها أكثر، وكانت الدراسة فيها تشتمل على اللغة الإنجليزية، وبعض المواد غير الأزهرية مثل: الكيمياء، والرسم وكان مادة نجاح ورسوب، وكذلك الأشغال اليدوية والخط.

وكان اسم دار العلوم مناظرا لدار الفنون فى الأستانة، وقد أنشأها على مبارك لهدف أساسى وهو تخريج معلمى اللغة العربية، وبدايتها كانت دار علوم فعلا فيها الطب والزراعة والهندسة واللغة العربية والشريعة. وعلى مبارك كان يحضر بعض المحاضرات بنفسه، وكان مقرها آنذاك فى جامع فاضل باشا فى شارع بورسعيد بالسيدة زينب، وانتقلت فى أكثر من مكان فكانت فى البرامونى، وانتقلت إلى جوار مدرسة السنية، ثم بالقرب من المدرسة القريبة بباب اللوق، واستقرت لفترة طويلة فى المنيرة من عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠ حتى ١٩٨٠ حيث استقرت فى جامعة القاهرة.

دار العلوم من مدرسة عليا إلى كلية:

فى أثناء التحاق بشر بدار العلوم، كانت دار العلوم مدرسة عليا تابعة لوزارة المعارف لا كلية، يقول بشر عن ذلك: فى السنة الرابعة فكر أحد الزملاء النبغاء وهو محمد حامد الأفندى: لم لا نلحق دار العلوم بالجامعة وتصير كلية لها حقوق الكليات من بعثات ودراسات عليا إلخ؟!.

وطالبنا بذلك فعلا، وكونا لجنة من الطلاب تمر على أعضاء مجلس النواب الذى يسمى الآن مجلس الشعب لإقناعهم بالفكرة، وعارضتنا الوزارة بشدة، فقمنا بالإضراب أكثر من نصف العام على فترات حسب الظروف، حتى جاءت الليلة الفاصلة التى اعتصمنا فيها بالكلية وكنا حوالى ثمانين طالبا، ونعلم جيدا أن الاعتصام ممنوع، وفى هذه الليلة وأذكر أنها كانت ليلة أم كلثوم أى مساء الخميس، اتصل أحد الزملاء من مكتب وكيل الكلية بالحكمدار (مدير الأمن الآن) وأخبره أننا معتصمون وسوف نحرق الكلية، فما هى إلا لحظات ووجدنا الكلية محاطة بالجنود ولسوء الحظ انطفأ النور بالكلية ليس بفعل فاعل، والباب مغلق، فاقتحم الجنود الكلية وجمعونا وأخذونا إلى قسم السيدة زينب بعد أن أعطوا كلا منا "علقة" ساخنة، وحققوا معنا حتى الصباح، ووزعونا على عدة أقسام، وكان نصيبى قسم الخليفة، وأذكر أننى كان معى كتاب "نشأة اللغة عند الإنسان والطفل" لأستاذنا عبد الواحد وافى أذاكر فيه بجوار المراحيض حيث وضعونا، ثم نقلنا إلى السجن، وكنا خمسة فى مكان لايزيد على متر× متر، وجلسنا عدة أيام، ولكن الزملاء فى الخارج قاموا بأعمال بطولية منها الاتصال بالجهات العليا وببعض أعضاء مجلس النواب، وقاموا بمظاهرات كبيرة، وكانوا يأتون لنا بالطعام لدرجة أن السمك الذى كان يقدم لنا ونحن فى السجن لم أذق مثله فى حياتى.. ونتيجة لجهود عديدة صدر المرسوم الملكى فى ٢٤ أبريل ١٩٤٦م بضم دار العلوم إلى جامعة فؤاد الأول "القاهرة الآن" على أن تبقى محتفظة باسمها التاريخى، وخرجنا من السجن وانضممنا إلى الطلبة، وحينئذ قرر لدار العلوم ما يقرر لكل الكليات من مميزات.

بشر أول الخريجين وأول طلاب درجة الليسانس:

وانتهت السنة الرابعة، وكان بشر أول الخريجين فى أول سنة يحصل عليها طالب دار العلوم على درجة الليسانس.

وبعد الليسانس التحق بشر بالمعهد العالى للمعلمين وكان يقع بجوار دار العلوم، ويقضى فيه الطالب عامين لتهيئته مدرسا، ويذكر بشر هنا الدكتور **عبد العزيز عبد المجيد**، وكان أستاذا فى دار العلوم ومنتدبا فى بعض المواد فى معهد التربية الذى احتضن بشرا وأخذ يعاونه فى علوم النفس والتربية حتى استطاع أن يعرف بعض المصطلحات وبعض الحوارات وأن يعرف شيئا عما يجول فى نفس الإنسان من زاوية علماء النفس.

وبالفعل تخرج بشر من المعهد، وعين فى مدرسة الأورمان، وكان يقوم بالتدريس للمرحلتين الابتدائية والثانوية معا فلم تكن توجد المرحلة الإعدادية بعد.

البعثة إلى إنجلترا:

وذات يوم، كان بشر يسير فى الشارع عائدا إلى بيته من مدرسة الأورمان، فوقعت عينه على خبر سار يخصه كان منشورا فى جريدة الأهرام التى كان يحملها فى يده.. فقد صدر قرار بعثته إلى إنجلترا للحصول على درجة الدكتوراه، وكان ذلك فى ٨ نوفمبر عام ١٩٤٨م.

وبدأ بشر يسعى فى إنهاء إجراءات سفره لإنجلترا، ولكن حدث أمر عجيب لم يكن فى حسبانه، فقد رفض ناظر مدرسة الأورمان إخلاء

طرفه إلا بعد الانتهاء من العام الدراسى، والفراغ من تصحيح امتحانات التلاميذ، ولذلك اضطر بشر إلى تأجيل سفره إلى البعثة حتى انتهى العام الدراسى على خير، وأُخلى طرفه من المدرسة.. وتقرر السفر إلى إنجلترا على متن سفينة إنجليزية فى ٢١ يونيو ١٩٤٩م، وكان برفقته مجموعة من الشباب من الكليات المختلفة، منهم عبد المنعم الصاوى رحمه الله وكان ذاهبا للندن ليكون مراسلا لجريدة المصرى (الوفد الآن).

وبذلك دخلت دار العلوم عالم البعثات الرسمية، ويلحق بشر ببعض أبناء دار العلوم الذين ذهبوا إلى إنجلترا من قبل للحصول على الدكتوراه، مثل: الدكتور على الجندى، والدكتور محمد الكفراوى، والدكتور محمد حلمى، والدكتور عبد الرحمن أيوب، والدكتور تمام حسان، والدكتور أحمد شلبى.

مراسم السفر العجيبة:

ربما يكون أمر السفر إلى إنجلترا أمرا معهودا لمن يسكنون فى مدينة كالقاهرة.. ولكن الأمر لم يكن هينا على أهل قرية محلة دياى.. فهذا حدث كبير فى تاريخ هذه القرية المصرية البسيطة، لا ينبغى أن يمر بهدوء، ولذلك يحكى بشر عن مراسم سفره إلى إنجلترا قائلا: من أطرف المواقف التى شهدتها أنه عندما سمعت القرية أننى ذاهب إلى إنجلترا قامت الدنيا ولم تقعد ابتهاجا وفرحا، بل خرجت القرى

المجاورة أيضا احتفاء بى، وتم توزيع الشربات والشاى والقهوة طوال خمسة عشر يوما حتى يوم السفر، وعند السفر اجتمعت الآلاف ولا أقول المئات لتوديعى، وأرادوا توديعى إلى السفينة ولكن طلب منهم ألا يثقلوا على أنفسهم، وعلى الرغم من ذلك فقد وصل معى إلى ميناء بورسعيد خمسون رجلا من أهالى وأعيان القرية والقرى المجاورة وفيهم عمدتان، فلك أن تتصور كم عدد الرجال الذين قاموا بتوديعى ابتداء من قريتى محلة دياى مرورا بطنطا فالقاهرة فبورسعيد.

وكان دخولى السفينة مشكلة حيث إننى لا أجيد اللغة الإنجليزية، فكيف أعرف مكانى أو كيف أتفاهم فقام بالمهمة ابن عم لى وهو أخو زوجتى.

مشكلة بسبب الجهل بالإنجليزية:

كادت مشكلة عدم إجادة اللغة الإنجليزية أن توقع بشرا فى ورطة كبيرة، فعندما وصل بشر إلى إنجلترا ومر على رجال الأمن لأخذ تصريح الإقامة فى إنجلترا لم يفهموا منه جيدا أسباب قدومه إلى إنجلترا، فقاموا بمنحة تأشيرة إقامة فى إنجلترا لمدة شهر واحد ويغادر بعدها البلد، وكادت هذه التأشيرة أن توقعه فى ورطة لولا أن تم تدارك الموقف واستطاع أن يفهمهم أنه قادم للدراسة، فأعطوه تأشيرة جديدة لمدة سنة وتجدد.

حقيبة الأرز والفاصوليا:

ومن المواقف الطريفة التى يحكيها الدكتور بشر عن رحلته إلى إنجلترا قصة الحقيبة الضخمة التى يحمل فيها الأرز والفاصوليا، يقول بشر: من عجيب الأمور أننى لم أشعر بما فى الحقائب التى أحملها معى فى رحلتى حتى وقعت فى ورطة فى محطة ثاوث هامبتون فى انجلترا ولذلك قصة طريفة.. فأستاذى الدكتور عبد العزيز عبد المجيد رحمه الله أستاذ المنطق فى دار العلوم قال لى: يا كمال أنت ذاهب إلى إنجلترا؟ قلت: نعم. قال: يا بنى الناس هناك خارجون من الحرب فلو أخذت معك هدية لفرحوا بك. قلت: وماذا تقترح؟ قال: بعض الأرز والفاصوليا الجافة، وحينما أبديت هذه الرغبة لوالدتى أرسلت إلى الإسكندرية وطلبت من أحد الأصدقاء أن يشترى لنا حقيبتين الواحدة: متر ونصف × متر وملأت إحداهما كاملة بالأرز والفاصوليا وأنا لم أشعر بها مطلقا طوال الرحلة لأننى لم أكن أحملها ولكن طابور المودعين كان يتناوب حملها. حتى وصلت إلى ثاوث هامبتون فأحسست بالمشكلة، واكتشفت أنه لا يمكن لأى انسان على وجه الأرض حمل الحقيبة ووقفت حائرا، فشعرت بى إحدى السيدات الإنجليزيات وطلبت أن تحمل عنى الحقيبة الخفيفة التى بها ملابسى على أن أتصرف أنا فى الحقيبة الكبيرة، وفعلا جررتها إلى القطار، ولكن كيف لى أن أرفعها إلى القطار، والقطار يطلق صفارته استعدادا للانطلاق فما كان من عبد المنعم الصاوى إلا أن قال: يا كمال « ميل

الحقيبة واركبها » ففعلت، فقام بجرى أنا والحقيبة ودخلنا عربة القطار معا. ووصلنا لندن واستقبلنا بعض الزملاء وأقمت بضعة أيام ثم توجهت إلى مكتب البعثات لتسليم نفسى.

الطريق إلى اكتساب اللغة الإنجليزية:

ذهب بشر إلى مكتب رئيس البعثات، وكانت السكرتيرة مس جاكوب تعرف العربية لأنها عملت فى قصر الملك فاروق قبل ذلك. وحينما نظرت إلى بشر قالت: "إنت منهم" - تقصد أنه لا يعرف الإنجليزية- ففهم بشر على الفور ماذا تقصد. فقال لها: نعم. فطلبت منه جاكوب ألا ينتظر فى لندن يوما واحدا.. وحينما سألها بشر عن سبب ذلك، أخبرته بوجود المطعم المصرى أسفل مكتب البعثات، وبه كل ما لذ وطاب من الفول والطعمية والكباب، وبالتالى فلن يستطيع أن يتعلم الإنجليزية مطلقا، لأنه يعيش كما لو كان فى مصر.. وأعدت له جاكوب العدة لمغادرة لندن، وقالت له: اذهب للدكتور كامل الباقر (الذى أصبح فيما بعد رئيسا لجامعة أم درمان فى السودان) وكان فى بعثة على حساب الملك فاروق، قالت: هو فى بلدة تدعى توركى بلدة بعيدة عن لندن، وفعلا ذهب بشر إلى هناك، وحضر دورة فى اللغة الانجليزية ولكنها لم تفده كثيرا، فأشار عليه أحد الأساتذة أن يتوجه إلى بلدة جلفرد لأن هناك مَدرسة جيدة للأجانب وقد كان.

يقول بشر عن ذلك: استقبلتنى على محطة جرين مان السيدة التى سأقيم عندها مع زوجها. وقضيت عندها تسعة أشهر هى أسعد أيام حياتى على الإطلاق. وفى "جلفرد" تعلمت اللغة الإنجليزية لا من الكتب ولكن طبقا للقاعدة التى وضعتها أنا حديثا "اسمع وأسمع" بمعنى أن تسمع اللغة التى تود أن تتعلمها وأن تتكلم هذه اللغة جهرا، أن تسمع نفسك وتسمع الناس وقد آتت هذه القاعدة أكلها. كما كان للرجل والمرأة دور فى تعليمى اللغة فقد كان الرجل يعمل زمارا فى الكنيسة وطلب اصطحابنا معه أنا وزملائى أحدهما من الهند الصينية والآخر من بلجيكا– إلى الكنيسة يوم الأحد، فكنا نذهب معه واستمعت إلى الأغانى وكم دمعت عيناى عند سماع هذه الأغانى المصحوبة بالموسيقى والأصوات المتسقة المتزنة الراقية الرقيقة، حتى إننى قلت فى نفسى آنذاك لم لا يكون لنا نوع من الأغانى العامة نغنيها فى الميادين، لأن الأغنية الجماعية فى غاية الأهمية لتوحيد الذهن والفكر والاتجاه.

ودرجنا على هذه المدة تسعة أشهر ثم عدت إلى لندن وقابلنى الدكتور تمام حسان وهو فى التخصص نفسه، فأخذ بيدى للأستاذ الذى سأتعامل معه فى دراستى وبدأت مرحلتى الدراسية مع الماجستير والدكتوراه والتى استمرت سبعة أعوام بالتمام والكمال.

فيرث اللغوى الكبير:

وشاء القدر أن يتعلم بشر على يد عالم من أعظم علماء اللغة فى العصر الحديث، وهو "فيرث"، يقول بشر: "عندما كنت فى البعثة وفقت إلى رجل وهو أستاذنا العظيم، –وأنا أصر– أستاذنا العظيم "فيرث"،

والذى أشرف على فى الماجستير والدكتوراه، هذا الرجل كان لا يفرق فى معاملته للطلاب بين الإنجليز والأجانب فى كل الأحوال. كان النظام أن نحضر محاضرات دائمة منتظمة طوال الوقت ونحن فى فترة الماجستير. ولذلك أنا أقول للحكومة المصرية لا يصح أن نقصر البعثات على طلبة الدكتوراه بل العكس يجب أن نرسلهم فى درجة الماجستير أولا لأن درجة الماجستير هى التى تصنع الباحث والدارس من المناقشات والاطلاعات والمحاورات والنجاح مرة والرسوب أخرى، أما طالب الدكتوراه فيذهب إلى المكتبة ويعمل. وقد ناديت بهذا أكثر من مرة "أيها الناس اجعلوا البعثات للماجستير قبل الدكتوراه وهى أهم لأن الطالب هناك يكتسب الحالة الاجتماعية والحالة العلمية ويأخذ الحوار ويأخذ المناقشات والاعتماد والثقة بالنفس والاطلاع على المراجع وهى تجربة ودربة وخبرة عظيمة جداً".

كانت الدراسة تجرى على محورين: محاضرات منتظمة، وكان أستاذنا العظيم "فيرث" يقدم لنا محاضرة يوم الأربعاء لمدة ساعتين عندما ننتهى من المحاضرة نوزع حسب تخصص كل واحد منا وحسب قدرته العلمية، مجموعة مع المعيد فلان وأخرى مع المدرس فلان، هذا الذى نوزع عليه كانت وظيفته الإشراف على السيمنار، وهو ما يطلق عليه الآن "قاعة البحث" يجلس إلينا ويقرر كل منا موضوعا معينا لتقديمه فى اجتماع المجموعة فى يوم كذا الساعة كذا ليناقشنا ويوجهنا. هذا هو الذى ربانا وعلمنا الإنجليزية والتفكير اللغوى وغير التفكير اللغوى، وأجدت اللغة الإنجليزية، حتى إن أستاذة من هيئة التدريس حينما

قدمت لها أوراق الماجستير لمراجعتها، قالت لى: لغتك الإنجليزية جيدة جدا، إذن أنت لغتك العربية جيدة جدا. قلت لها: فعلا. قالت: هذا هو رأيى: من يجيد اللغة الأم يجيد اللغة الأجنبية.

هذه قاعدة لا أنساها، ولذلك أقول للأولاد عندما تتعلمون لغة أجنبية يجب أن تكونوا على معرفة مناسبة باللغة العربية لأن القواعد الأساسية متشابهة فى المقدرة اللغوية عند الإنسان.

العودة من البعثة ثم العودة إلى التراث العربى:

عاد الدكتور بشر من إنجلترا عام ١٩٥٦ ليعمل مدرسا فى قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، وكعادة العائدين إلى بلادهم من بعثات علمية بالخارج، أن يغلب عليهم طابع الانبهار بعلوم الغرب، والتقليل من شأن التراث العربى، وكان قد سبق بشرا إلى مصر عائدا من إنجلترا بعد أن حصل على الماجستير والدكتوراه على يدي فيرث أيضا، الدكتور عبد الرحمن أيوب، فكان بشر وأيوب يعقدان بعض المناظرات العلمية مع بعض أساتذة الأزهر فى رحاب دار العلوم، وكانت جميع هذه المناظرات تنتهى بتفوق واضح لأبناء دار العلوم، فكان الطلاب يحملون بشرا وأيوب على أكتافهم ويسيرون بهما فى جنبات دار العلوم وما حولها من الشوارع فرحين بانتصارهم على شيوخ الأزهر..

وكان مكتب بشر فى الكلية مع مكتب الأستاذ على النجدى ناصف -رحمه الله- فى حجرة واحدة، وكان الدكتور النجدى يرى ما يحدث حوله من مناظرات مع الأزهريين يقودها بشر، وربما كان يرى بعض التحامل من بشر وأيوب على العلماء العرب.. فقال النجدى لبشر ذات يوم: يا كمال أنت من أسرة أصيلة.. وأراك كثيرا ما تعيب فى النحاة العرب وتنقص من شأنهم.. فهل قرأت كتاب الخصائص لابن جنى؟

فقال بشر: قرأته قبل سفرى إلى إنجلترا فى نسخة صفراء غير محققة. فقال الأستاذ النجدى: لقد طبع الكتاب طبعة جديدة بتحقيق الشيخ محمد على النجار.. فيا حبذا لو اطلعت عليها وقرأتها بعناية..

وقعت كلمات الأستاذ النجدى من بشر موقعا عظيما، فبشر يدرك جيدا قدر الأستاذ النجدى، ومدى سعة علمه، ولذلك دخل بشر قاعة الدراسة عقب كلامه مع الأستاذ النجدى، سأل تلاميذه عن الطبعة الجديدة لكتاب الخصائص، فقام إليه أحد تلاميذه، وهو محمد إبراهيم عبادة (وهو الآن أستاذ بجامعة بنها)، وأخبره بأن الكتاب طبع بتحقيق الشيخ النجار بدار الكتب، وتعهد بإحضار نسخة للدكتور بشر، وبالفعل أحضر عبادة نسخة من الكتاب فى ثلاثة أجزاء وجلدها تجليدا فاخرا وأهداها لأستاذه.. يقول بشر: عكفت على الكتاب وقرأت ما فيه بجياد تام، فرأيت عبقرية لغوية فذة.. فمنذ هذه اللحظة

رجعت إلى تراثنا العربى الأصيل لأستخلص منه مثل هذه اللمحات العظيمة التى تقترب بصورة كبيرة مما توصل إليه العلم الحديث من نظريات لغوية وأسس منهجية..

ولعلنا نلحظ ذلك فى كتب الدكتور بشر على ما سنبين بعد ذلك، مثل: دراسات فى علم اللغة، والأصوات، والتفكير اللغوى بين القديم والحديث..

بشر والجمعيات الأهلية اللغوية:

للدكتور بشر نشاط ملحوظ فى الجمعيات الأهلية اللغوية، فهو أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية لسان العرب، كما أنه رئيس جمعية حماة اللغة العربية، فهو يؤمن إيمانا كبيرا بالدور الذى تؤديه هذه الجمعيات فى خدمة اللغة العربية، فهو يرى أن نهضة اللغة العربية تنبع فى الأساس من أهليها وأصحابها الذين يتكلمونها فى البيت والشارع والعمل، وهذه الجمعيات تفتح أبوابها لكل طوائف الشعب، ومن يلتحق بها يكون ذلك عن رغبة وحب للجمعية وأهدافها..

ولم يقتصر عطاء الدكتور بشر على الجمعيات الأهلية اللغوية فقط، فكما هو أستاذ للغة فهو كذلك أستاذ فى فن الحياة والتعامل مع الناس، يشع قلبه رحمة، ويمتلئ حبا لكل من حوله، ومن ثم فقد اختير رئيسا شرفيا لجمعية أهل العزيمة لذوى الاحتياجات الخاصة.

الدكتور بشر مع تلامذته:

عندما عاد الدكتور بشر من لندن عام ١٩٥٦م، قام بالتدريس فى كلية دار العلوم، وتعلم على يديه آلاف الطلاب الذين التحقوا بالكلية على مدار خمسين سنة، وما زال حتى الآن -أحسن الله بقاءه- يقوم بالتدريس لطلاب الدراسات العليا بالكلية ذاتها، هذا بالإضافة إلى الطلاب العرب فى عدد كبير من الدول العربية الذى درسوا على يديه سواء فى مرحلة الليسانس أو مرحلة الماجستير والدكتوراه..

ولا شك أن عددا كبيرا من تلامذة الدكتور بشر صاروا أساتذة كبارا فى كلية دار العلوم وفى الجامعات المصرية والعربية، فالدكتور بشر -بحق- أستاذ الأساتذة، كما أن عددا من هؤلاء الأساتذة تلامذة الدكتور بشر كانوا عمداء لكلية دار العلوم ولكليات أخرى فى الوطن العربى والإسلامى، ولما كان الدكتور بشر قد تولى عمادة كلية دار العلوم فى الفترة ما بين ١٩٧٣-١٩٧٥م، فقد أطلق على الدكتور بشر عميد العمداء، ولا يخفى على أحد أن هذه الألقاب الشرفية التى نالها الدكتور بشر تؤكد على عمق المكانة العظيمة التى يحظى بها فى قلوب تلاميذه ومحبيه..

والدكتور بشر يعلن دائما أن لكل طالب درس عنده أو جلس بين يديه مرة واحدة مكانة فى قلبه سواء ذكر اسمه أو لم يذكره، فأحب شيء إلى قلبه هم طلاب العلم، كما أن أسعد لحظات الدكتور بشر هى تلك التى يجلس فيها بين تلاميذه يتجاذب معهم أطراف الحديث، ويشرح لهم بعض دروس العلم، وكانت محاضراته أشبه بلقاء

أسرى واسع يشعر فيه الطلاب مع أستاذهم بعاطفة الأبوة ممزوجة بروح الأستاذ الرحيم المحب لتلاميذه ..

ويحضرنى فى هذا المقام موقف كنت وما زلت أشاهده حتى اليوم فى نهاية كل عام دراسى، حيث يحرص عدد كبير من الطلاب فى دار العلوم على إحضار كاميرات التصوير الفوتوغرافية معهم إلى الكلية لالتقاط الصور التذكارية لهم مع أستاذهم الدكتور بشر، وما رأيته فى يوم من الأيام يرفض طلبا من أحد يطلب منه هذا الأمر، بل كان يقف بين تلامذته الذين يحيطون به من كل جانب مبتسما سعيدا، ولا تفوته الدعابة العذبة فى نهاية الموقف فيقول لتلامذته وقد امتلأت قلوبهم بالفرحة: كل واحد يأخذ صورته ويفرج عليها أباه وأمه ثم يعلقها فى الصالون.. ويختم تعليقه هذا بضحكته المشهورة المعروفة التى تعجز لغة الكتابة عن تصويرها.. والتى كنا نحب أن نسمعها منه دائما.. وعندما كنا نسأله عن كيفية هذه الضحكة وكيف اكتسبها يرد علينا قائلا: هذه الضحكة لها سياق ومقام وجرس.. ها ها ها..

ومما يؤثر عن الدكتور بشر فى علاقته مع تلاميذه أنه كان يصطفى من نوابغ الطلاب من كل دفعة دراسية واحدا أو اثنين أو أكثر، ويوليهم بعض الاهتمام، ويتبناهم علميا، ويتخذهم أصدقاء، ولم يخب ظنه أبدا فى هذه النوعية من الطلاب، فقد كتب لهم جميعا التفوق فى مجالات الحياة والنبوغ فى العلم.

وعلى الرغم من كثرة تلامذة الدكتور بشر على مر الأجيال المتعاقبة التى درس لها إلا أن ذاكرته ما زالت -بفضل الله- تحتفظ بأسماء عدد من هؤلاء التلامذة الذين لهم مكانة خاصة عنده، ومن هؤلاء الطلاب:

- الدكتور أحمد مختار عمر أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم رحمه الله.
- الدكتور محمد عيد أستاذ النحو والصرف بكلية دار العلوم رحمه الله.
- الدكتور محمود الربيعى أستاذ النقد والبلاغة بكلية دار العلوم والجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- الدكتور محمد شفيع الدين سيد أحمد أستاذ البلاغة والنقد بكلية دار العلوم.
- الدكتور محمد بلتاجى حسن أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم وعميدها السابق رحمه الله.
- الدكتور محمد حسن عبد العزيز أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم.
- الدكتور أحمد عبد العزيز كشك أستاذ النحو والصرف بكلية دار العلوم وعميدها الحالى.
- الدكتور عبد العزيز بن عبدالله تركى وزير التربية والتعليم بقطر سابقا.

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من أساتذة دار العلوم وأعضاء هيئة التدريس فيها، وعدد كبير من أساتذة الجامعات المصرية فى أقسام اللغة العربية، مثل:

الدكتور عبد الغفار هلال، والدكتور محمد عباده، والدكتور رفعت الفرنوانى، والدكتور محمود جاد الرب، والدكتور فتحى يونس، والدكتور على مدكور، والدكتور فتحى جمعة، والدكتور محمد حماد، والدكتور محمد صالح توفيق، والدكتور إبراهيم الدسوقى، والدكتور إبراهيم ضوة.

ولا يكون من قبيل المبالغة أن نقول: إن كل أساتذة دار العلوم حاليا – ما عدا القليل منهم– تلامذة الدكتور كمال بشر.

وهناك صنف آخر من تلامذة الدكتور بشر لا يمكن أن نغفلهم ونحن نتحدث عن علاقة الدكتور بشر بتلاميذه، وهم مذيعو ومذيعات الإذاعة والتليفزيون فى مصر وبعض البلاد العربية، فقد قام الدكتور بشر بالتدريس فى معهد التدريب الإذاعى بمصر على مدار السنوات الأربعين الماضية، كما عقد دورات تدريبية للمذيعين فى بعض البلدان العربية، فقد انتدب لتدريس اللغة العربية للمذيعين فى إذاعة وتليفزيون أبو ظبى من ١٩٧٨ إلى ١٩٩٥ تقريبا، مما جعل للدكتور بشر تلامذة كثيرين فى هذا الحقل الإعلامى الكبير، وعدد كبير من هؤلاء المذيعين والمذيعات مشهود لهم الكفاءة، وحسن العطاء، أمثال

عبد الوهاب قتاية، وصالح مهران، وزينب سويدان، ومرفت رجب، وتهانى رمضان، وحسن حامد، وسميحة دحروج، وعمر بطيشة، وإيناس جوهر، ومصطفى لبيب، وسيد عبد الكريم، وهاجر سعد الدين، وسوزان حسن، وسهام صبرى، وجمال الشاعر.

وفى النهاية تستطيع أن تلخص مشوار حياة الدكتور بشر من خلال إجابته نفسه عن هذا السؤال حيث يقول:

أنا رجل نصفى فلاح ونصفى شيخ، تعلمت من الفلاحين الأصالة، ومن الشيوخ الدقة والانضباط.. وتستطيع أن تصف ثقافتى العلمية بأنها ثقافة عجيبة أحمد الله عليها ثقافة ريفية أصيلة وثقافة دينية عربية عميقة وثقافة متنورة مصقولة فى دار العلوم ثم ثقافة أجنبية محترمة ذات تخصص عال وتفكير حر صنعت ما وصلت إليه والحمد لله..

بشر واللغة العربية:

أمضى الدكتور بشر معظم عمره فى رحاب اللغة العربية، بحيث صار هو واللغة وجهين لعملة واحدة، وقلما نجد من الأجيال المعاصرة من يغار على اللغة العربية غيرة الدكتور بشر عليها، فهو فى مؤتمراتها أول المنافحين عنها المبطلين لحجج من يريد أن ينال منها بسوء، كما أنه من أشد المتحمسين للارتقاء باللغة على كافة المستويات..

وهذه العلاقة الوثيقة بين بشر واللغة العربية أهلته للتميز ببعض اللمحات اللغوية الرائعة.. التى تعتبر حصيلة خبرة السنوات الطوال، هذه اللمحات منها ما يخص أسلوبه العذب فى الكتابة والتأليف وابتكار بعض الألفاظ الجميلة، مثل تنماز، وتسطيع، والعوربة، والعولمة،...

ومنها ما يخص الفكر اللغوى بعامة، ويتمثل ذلك فى صورة مقولات سهلة العبارة عميقة المعنى، مثل:

- اللغة بين الطبع والصنع
- اللغة العربية موحِدة موحَدة.
- ليس النحو الإعراب وليس الإعراب النحو.
- اكتساب اللغة يتلخص فى قولنا: اسمع وأسمع.

وغيرها من العبارات المحكمة فى مبناها ومعناها، ولا شك أن من يقرأ للدكتور بشر مقالا أو كتابا يشعر من خلاله بجمال الأسلوب، ورشاقة العبارة، مما يجعل القارئ يظن أنه يستمع إليه مباشرة، فكلماته مملوءة بالحيوية، وكأن فيها روحا تسرى فى مستمعها، فلا يُمل من مؤلفاته أو حديثه.

وما من أحد يجلس بين يديه مرة أو يقرأ له مقالا أو كتابا إلا خرج من موقفه هذا وقد أحب العربية، وازداد فخرا بالانتماء إليها وإلى أهليها.

الحياة العلمية والثقافية للدكتور بشر

أولا : المؤهلات العلمية

- ليسانس اللغة العربية والدراسات الإسلامية ١٩٤٦م (كلية دار العلوم) جامعة القاهرة.
- دبلوم المعهد العالى للمعلمين فى التربية وعلم النفس (وزارة المعارف المصرية ١٩٤٨م).
- ماجستير فى علم اللغة المقارن ١٩٥٣م من جامعة لندن.
- الدكتوراه فى علم اللغة والأصوات من جامعة لندن ١٩٥٦م.

ثانيا: التدرج الوظيفى

عين:

- مدرسا للغة العربية والتربية الإسلامية بوزارة التربية والتعليم من أكتوبر ١٩٤٨ إلى ١٩٤٩م.
- مدرسا بقسم علم اللغة بكلية دار العلوم من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٢ بعد عودته من البعثة العلمية بلندن.
- أستاذ مساعدا بذات الكلية من ١٩٦٢م.
- أستاذ من مايو ١٩٧٠م.

- رئيسا لقسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية من ١٩٦٩ حتى سبتمبر ١٩٨٧م
- وكيلا لكلية دار العلوم سنة ١٩٧٣م.
- عميدا لكلية دار العلوم ١٩٧٣ – ١٩٧٥م.
- أستاذا متفرغا بالكلية من ١/ ٩/ ١٩٨٧ حتى يوليو ٢٠٠٠م
- أستاذا غير متفرغ من يوليو ٢٠٠٠ حتى الآن.

ثالثا: النشاط الأكاديمى

قام بنشاط أكاديمى واسع يتمثل فيما يلى:

أ- التدريس والإشراف على الرسائل العلمية:

١. التدريس طوال فترة عمله دون انقطاع فى كلية دار العلوم (باستثناء ثلاث سنوات قضاها بجامعات السعودية).

٢. المشاركة فى التدريس وتقديم الخبرة فى الجامعات المصرية والبلاد العربية على النحو التالى:

فى مصر:

- كلية الآداب – جامعة القاهرة.
- كلية الإعلام – جامعة القاهرة.
- كلية البنات – جامعة عين شمس.

- معهد البحوث والدراسات العربية (التابع لجامعة الدول العربية).
- معهد الفنون المسرحية (أكاديمية الفنون).
- معهد الدراسات والبحوث الأفريقية (جامعة القاهرة).

فى البلاد العربية:

- الجامعات السعودية (بالإعارة والزيارة) جامعة الرياض وجامعة الإمام محمد بن سعود.
- كلية التربية بقطر.
- كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بقطر.
- كلية الآداب – جامعة الإمارات.
- كلية الآداب - جامعة الكويت.

٣. الإشراف على مجموعة كبيرة من الرسائل (الماجستير والدكتوراه) فى دار العلوم ومعهد الدراسات العربية وآداب القاهرة وكلية الإعلام.

٤. الاشتراك فى مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه فى الجامعات المصرية وجامعة الأزهر وجامعات البلاد العربية (السعودية والأردن والكويت).

ب- العضوية فى هيئات علمية:

وللدكتور بشر مواقع علمية ذات أهمية خاصة، ذلك أنه:

- الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- الأمين العام لاتحاد المجامع اللغوية العربية.

- نائب رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة
- عضو بالمجلس القومى للتعليم.
- عضو بالمجلس القومى للثقافة.
- عضو بشعبة الثقافة (المجالس القومية).
- عضو بلجنة التعليم الأزهرى (المجالس القومية المتخصصة).
- عضو بالمجمع العلمى المصرى.
- عضو بلجنة تطوير مناهج اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم.

رابعا: النشاط الثقافى العام

وللدكتور بشر، نشاط ثقافى عام متعدد المناحى والاتجاهات، من ذلك مثلا:

- الاشتراك فى مؤتمرات علمية وثقافية فى البلاد العربية وغيرها على فترات من الزمن.
- الإشراف على ترجمة معجم المصطلحات اللغوية، والاشتراك فى المراجعة النهائية لهذا المعجم الذى أصدرته جامعة الرياض (الملك السعود الآن) سنة ١٩٨٣م.
- عشرات من المقالات اللغوية والثقافية ذات الطابع العام، ونشرت بمجلات عربية مختلفة.
- مئات من الأحاديث الإذاعية والتليفزيونية فى مصر والسعودية والكويت ودولة الإمارات العربية والعراق وعمان.

- عشرات من الأحاديث الصحافية فى اللغة والثقافة بالصحف المصرية والسعودية والكويتية والإماراتية والعراقية والتونسية والقطرية.
- الاشتراك فى الدورات التدريبية فى اللغة العربية للمذيعين فى مصر والسعودية وقطر ودولة الإمارات العربية.
- تقديم المادة العلمية لعدة سنوات لبرنامج إذاعى خاص باسم "لغة الشعب".

خامسا: دراسات عن الدكتور بشر:

قدم الباحث رمضان السيد رمضان منصور رسالة ماجستير إلى قسم أصول اللغة بكلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر بعنوان: كمال بشر لغوياً ١٤٢٣-٢٠٠٢هـ. وقد تناول الباحث فى رسالته عطاء الدكتور بشر فى الجانب اللغوي، واستقى الباحث مادته من مؤلفات الدكتور بشر ومقالاته ومحاضراته. وقد حصل الباحث بهذه الرسالة على درجة الماجستير بتقدير ممتاز.

سادسا: الأوسمة والجوائز التى حصل عليها الدكتور بشر:

* نال جائزة صدام فى الدراسات اللغوية عام ١٩٨٧م.
* حاز وسام العلوم والفنون من الدرجة الثانية جمهورية مصر العربية.
* حاز وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى، جمهورية مصر العربية.
* جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٩١م، جمهورية مصر العربية.

الفصل الثانى

تعريف بمؤلفاته

تعريف بمؤلفاته

مسرد المؤلفات

١) علم الأصوات

٢) دراسات فى علم اللغة

٣) دور الكلمة فى اللغة: وهو ترجمة لكتاب:
Words & Their use

٤) علم اللغة الاجتماعى

٥) صفحات من كتاب اللغة

٦) خاطرات مؤتلفات فى اللغة والثقافة

٧) اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم

٨) فن الكلام

٩) مجمعيات

١٠)التفكير اللغوى بين القديم والجديد

١١)إذاعيات

١٢)دراسات فى علم المعنى (السيمانتيك)

١٣) منهج فى التطور اللغوى فى ضوء علم اللغة التاريخى.

(١) علم الأصوات

دار غريب – القاهرة، ٢٠٠٠م

٦٤٠ صفحة، ١٧×٢٤سم

هذا الكتاب من أوفى وأكمل ما قدم للمكتبة العربية فى علم الأصوات، ويقع الكتاب فى أربعة أبواب:

الباب الأول: علم الأصوات وجوانبه. وبه ستة فصول:

الفصل الأول : علم الأصوات وجوانبه.

بين المؤلف فى هذا الفصل أن علم الأصوات دون تخصيص, يخضع لعدة تقسيمات أو تصنيفات, بحسب مسيرة إصدار الكلام وأدائه نطقا, وبحسب طبيعة هذه الأصوات من حيث كونها أحداثا مادية منطوقة, أو كونها ذات وظائف معينة فى بنية الكلمة, وبحسب وجهات النظر فى الدرس والتحليل ومجال الدراسة.

فالنظر إلى الأصوات من حيث كونها مادة منطوقة مرسلة من متكلم إلى سامع يقتضى تفريع علم الأصوات إلى ثلاثة فروع هى: علم الأصوات النطقى، علم الأصوات الفيزيائي (أو الأكوستيكى) وعلم الأصوات السمعى. ولكل خصائصه ومجاله. وقد جرى العرف على تقديم فرع رابع يخضع نتائج ما توصلت إليه الفروع الثلاثة الأولى للتجريب والتوثيق بوساطة الآلات والأجهزة الصوتية، ومن ثم سمى هذا الفرع علم الأصوات المعلمى أو التجريبى أو العملى.

وأصوات اللغة لها جانبان، جانب مادى وآخر وظيفى. ومن هنا جاء تفريع ثان لهذا العلم، يتمثل فيما سموه "علم الأصوات" أو "الفوناتيك"، وفيما أطلقوا عليه علم وظائف الأصوات Phonology، أو "الفنولوجيا".

ونظر بعضهم إلى علم الأصوات من حيث العموم والخصوص، فكان لديهم ما يعرف بعلم الأصوات العام general phonetics، وعلم الأصوات الخاص.

ويوجد تصنيف رابع لهذا العلم من حيث المنهج وطرائق التحليل وأغراض الدراسة، فكان علم الأصوات الوصفى، علم الأصوات التاريخى، وعلم الأصوات المقارن.. إلخ.

الفصل الثاني: يبين الفوناتيك والفنولوجيا

بظهور المصطلحين Phonetics (الفوناتيك) وPhonology (الفنولوجيا) وكثرة استعمالها جنبا إلى جنب فى الدرس الصوتى، وقف الباحثون منهما مواقف مختلفة فيما يتعلق بمفهوم كل منهما، وعلاقة أحدهما بالآخر.

رأى قوم أن المصطلح الأول يعنى دراسة أصوات اللغة (أية لغة) من جانبها المادى الصرف، وقرر بعضهم أن هذه الدراسة الأنسب لها أن تدخل فى إطار (الفيزياء)، لا فى إطار علم اللغة، وذهب آخرون إلى أن (الفوناتيك) خاص بدراسة أصوات الكلام، وأن الفنولوجيا هو المختص بأصوات اللغة. وهذا هو رأى الآخذين بمبدأ دى سوسير الذى يفصل بين الكلام Parole واللغة Langue.

وجاء التفريق عند فريق آخر تفريقا منهجيا، فخصصوا الفوناتيك للدراسة الوصفية والفنولوجيا للدرس الصوتى التاريخى، أما الرأى الأشهر -وبه يأخذ المؤلف- فيقرر أن بينهما فروقا، ولكنهما معا يعملان فى مجال واحد، هو دراسة أصوات اللغة، ومن ثم استقر الرأى لديهم على أن الجانبين متكاملان، ولا يمكن الفصل بينهما فصلا تاما، وأن الفرق بينهما – إن كان هناك فرق – فيتمثل فى أن الفوناتيك خطوة ممهدة للانتقال إلى الفنولوجيا. فالأول يجمع المادة الخام والثانى يخضع هذه المادة للتقعيد، باستخلاص القواعد والقوانين الكلية من هذه المادة.

وللأمريكان وجهة نظر أخرى، فالفوناتيك عندهم علم عام يدرس أصوات اللغة من كل جوانبها، وفى مقابل الفنولوجيا عند غيرهم، قدموا لنا فكرة "الفونيم" Phoneme أى الوحدة الصوتية ذات المعنى المعين فى التركيب الصوتى فى اللغة المعينة، وتوسعوا فى هذه الدراسة، حتى صار لديهم ما سموه "علم الفونيمات" Phonemics.

الفصل الثالث: الصوت اللغوى

حاول المؤلف فى هذا الفصل تحديد معنى الصوت اللغوى، حيث أشار إلى أن الصوت له ثلاثة جوانب: جانب نطقى فسيولوجى، جانب فيزيائى، وجانب سمعى. وقرر أن اهتمامه سيكون موجها بصفة خاصة إلى الجانب الأول، لأنه أقرب منالا، وأقدم فى البحث وأوسع فى الانتشار والأخذ به.

ثم عرج على ما خلفه لنا علماء العربية فى هذا الشأن. ملاحظا أنهم ركزوا أيضا على الجانب النطقى، وإن كنا نلمس من جملة ما قرروا أنهم لمسوا من قريب أو بعيد الجانب السمعى للأصوات.

ولتوضيح ميكانيكية النطق، وضح المؤلف هذه الميكانيكية بتقديم شكل بيانى لجهاز النطق، ووقف وقفات خاصة عند بعض أعضائه، كالأوتار الصوتية مثلا، وبين أوضاعها المختلفة بالشرح، موضحة بالرسوم البيانية.

الفصل الرابع: تصنيف الأصوات

دراسة الأصوات دراسة علمية دقيقة تقتضى تصنيفها إلى مجموعات، كل مجموعة تنتظم عددا من الأصوات التى لها سمات مشتركة معينة.

وقد خصص المؤلف هذا الفصل لتصنيف الأصوات إلى ذلك التصنيف الثنائى المعروف المتمثل فى "الصوامت" Consonants و"الصوائت" أو الحركات Vowels. وقد بنى هذا التصنيف على معايير عالمية معينة تفرق بين القبيلين تفريقا حاسما باستثناء حالات خاصة، كالواو والياء فى العربية إذ لهما سمات ترشح ضمهما إلى "الصوامت" تارة، وإلى الحركات تارة أخرى.

الفصل الخامس: الأصوات الصامتة

عمد المؤلف فى هذا الفصل إلى تصنيف الأصوات الصامتة إلى فئات أو مجموعات، بالنظر إليها من زوايا ثلاث، هى: وضع الأوتار الصوتية، ومخارج النطق، وكيفية مرور الهواء عند النطق بالصوت المعين. ومن ثم كان لدينا ثلاثة تصنيفات أو تقسيمات لهذه الأصوات.

جاء التصنيف الأول على أساس وضع الأوتار الصوتية عند النطق، فكان من الأصوات ما هو مجهور وما هو مهموس، وما هو ليس بمجهور ولا مهموس وهو الهمزة وحدها.

وحدد المؤلف مفهوم الجهر والهمس، وتعيين المجهور والمهموس من الأصوات العربية بالذات، مع مقارنة ما توصل إليه بما صنعه علماء العربية فى هذا الشأن.

وكان التصنيف الثانى مبنيا على أساس مخارج الأصوات، وانتهي المؤلف من ذلك إلى مجموعة من الفئات الفرعية للأصوات الصامتة، وفقا لهذا الأساس، مع نعت كل مجموعة بمصطلح يعين أو يشير مباشرة إلى مواضع إصدارها نطقا.

أما التصنيف الثالث والأخير فأساس العمل فيه هو النظر إلى كيفية مرور الهواء عند النطق بالأصوات، فقد يقف الهواء وقوفا تاما عند نقطة من نقاط النطق، وقد يخرج محتكا بأعضاء النطق، وقد يتسرب من الأنف أو من جانبى الفم... إلخ.

وانتهي المؤلف من ذلك إلى تصنيفات فرعية للأصوات من هذه الناحية، مع المقارنة بما قدمه لنا علماء العربية فى هذا الشأن.

الفصل السادس: الحركات

عرض المؤلف فى هذا الفصل لمفهوم المصطلح "حركة" بالإشارة إلى المعايير التى بنى عليها هذا المفهوم، ودرج بعد إلى ذكر شىء من خواص الحركات، مقارنة بالأصوات الصامتة، وأشار كذلك إلى مفهوم الحركة عند علماء العربية.

وقرر أن الحركات – كما هو معروف – تتسم بالصعوبة فى النطق. وأنها تختلف عددا ويما من لغة إلى أخرى، وأنها مظنة الخطأ الذى يؤدى إلى الخطأ فى معانى الكلمات.

وقام المؤلف بشرح هذه الحركات المعيارية مع بيان عددها ورموزها العالمية، مع توضيح كل ذلك بالرسوم البيانية. وقام بعد ذلك بتصنيفها وفقا لوضع اللسان عند النطق بها من حيث جزؤه الأمامى أو الخلفى ومن حيث درجة علو هذا الجزء أو انخفاضه عند النطق بالحركة المعينة.

الباب الثاني: الأصوات العربية. وبه قسمان: القسم الأول: الأصوات الصامتة. وبه أربعة فصول:

الفصل الأول: الوقفات الانفجارية

اختص هذا الفصل بالحديث عن الأصوات الوقفات الانفجارية، وتفسير مفهوم الوقفة والانفجار. وتحديد الأصوات العربية التى ينطبق عليها الوصف فى نطقنا ونطق مجيدى قراء القرآن الكريم فى مصر.

وأتبع المؤلف ذلك بالمقارنة بين ما صنعه فى هذا الشأن وما قدمه علماء العربية فى الموضوع نفسه.

ووقف المؤلف وقفات مناسبة عند أصوات معينة من هذه المجموعة لاختلاف العرب فيها نظرا وأداء فعليا، كالضاد والقاف والهمزة.

الفصل الثاني: وبه مبحثان

المبحث الأول: الأصوات الاحتكاكية

قام المؤلف بتفسير مفهوم الاحتكاك (ويقابله الرخاوة عند علماء العربية) وحدد الأصوات العربية التى ينطبق عليها هذا المفهوم، وأشار إشارات متفرقة إلى رأى علماء العربية فى هذا الشأن.

المبحث الثاني: الأصوات المركبة (الوقفات – الاحتكاكية)

وينطبق هذا الوصف على صوت الجيم، كما ينطقه المتخصصون فى اللغة العربية وقراء القرآن الكريم فى مصر الآن. وذكر المؤلف صور نطق الجيم فى القديم والحديث.

الفصل الثالث: وبه مبحثان:

المبحث الأول: الأصوات المتوسطة أو البينية

هذه الأصوات هى المجموعة فى قولهم "لم نر" أو "لم نرع" أو كما قال ابن جنى "لم يرو عنا" وقد شرح المؤلف معنى التوسط عند علماء العربية ونهج نهجا آخر فى تحديد مفهوم التوسط، والمعايير التى بنى عليها هذا المفهوم وانتهي إلى تسميتها "أشباه الحركات".

المبحث الثانى: أنصاف الحركات:

وهى الواو والياء إذا أتبعتا بحركة، أو وقعتا ساكنتين بعد فتح، وبيّنَ سر التسمية بهذا الاسم.

الفصل الرابع: صوامت ذات سمات خاصة

وبه مبحثان:

المبحث الأول: أصوات القلقلة

عرض المؤلف هنا للأصوات التى أطلق عليها علماء العربية "أصوات القلقلة" وهى المجموعة فى قولهم باتفاق "قطب جد" وأشار إلى الخواص الصوتية المشتركة بين هذه الأصوات، كما حددها هؤلاء العلماء، والتى توجب قلقلتها عند النطق بها.

المبحث الثاني: أصوات التفخيم

حدد المؤلف مفهومي التفخيم والترقيق فى اللغة العربية. ونظر إلى الأصوات المفخمة أو التى يصيبها التفخيم، وصنفها إلى فئات بحسب نصيبها من التفخيم: أهى مفخمة بطبيعتها أم أن تفخيمها مشروط بسياقاته، أم مقصور على حالات خاصة.

القسم الثاني: (من الباب الثاني) الحركات:

وبه فصلان:

الفصل الأول: الحركات العربية ومشكلاتها في القديم والحديث:

أشار المؤلف فى البدء إلى مفهوم "الحركة" بعامة، وانتهي من ذلك إلى أن بالعربية الفصيحة ثلاث حركات قصار، وثلاثا طوالا، هى المعروفة عندهم بحروف المد: الألف والواو والياء.

وقرر أن لعلماء العربية نوع إدراك بخواص الحركات قصيرها وطويلها. يظهر بوجه خاص من اهتمامهم الكبير بحروف المد، وقرر أن ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء، ويعنى به الحركات القصار.

وأشار المؤلف فى هذا الفصل كذلك إلى أنه قد وقع خلط فى القديم والحديث فى المصطلحات التى أطلقوها على الألف والواو والياء. فهى حروف مد عند بعضهم، وحروف مد ولين عند فريق آخر، وليس من النادر أن يسميها آخرون "أصوات اللين" وقام بمناقشة هذه النعوت وفك الاشتباك بين مفهوماتها على وجه علمي مبني على وظائف هذه الحروف الثلاثة، وعلى سياقاتها فى بنية الكلمة.

الفصل الثاني: تصنيف الحركات (العربية)

في البدء تحدث المؤلف فى هذا الفصل عن مصطلحات العرب فى القديم التى استخدموها فى هذا المجال. حيث قصروا مصطلح "الحركات" على ما نعرفه الآن بالفتحة والكسرة والضمة (الحركات القصار)، أما الطوال فهى حروف المد عندهم.

واختار المؤلف إطلاق مصطلح "الحركات" على القبيلين، لاشتراكهما فى الصفات والسمات الأساسية التى تفرق بينهما وبين الأصوات الصامتة.

وأشار المؤلف إلى مناقشات العرب حول الأصلية والفرعية لهذه الحركات.

وانتهي المؤلف إلى أن الحركات العربية كما ينطقها المتخصصون اليوم فى مصر ست: ثلاث قصار وثلاث طوال. وقام بتحديد صفات كل حركة وكيفية أدائها، مقارنا ذلك كله بالحركات المعيارية العالمية مع التوضيح بالرسوم البيانية.

الباب الثالث: في الفنولوجيا. وبه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الفونيم:

أطلق مصطلح "الفونيم" The Phoneme فى أصل استعماله على الصوت بمعناه المطلق، وبمرور الزمن وتطور الفكر الصوتى، قصر استخدامه للإشارة إلى الصوت المعين من حيث قيمته ووظيفته فى اللغة المعينة، وينعته بعضهم بالوحدة الصوتية، كالباء والتاء والثاء إلخ، بقطع النظر عما يحدث لكل منها من تغيرات نطقية فى السياق.

وذكر المؤلف بعض آراء الدارسين فى مفهوم الفونيم بحسب وجهات النظر فى التحليل الصوتى.

الفصل الثانى: المقطع والنبر

بين المؤلف أن المقطع والنبر متلازمان، فالمقطع هو حامل النبر، والنبر أمارة من أمارات تعرفه. وحاول تحديد مفهوم المقطع، وذكر وجهات النظر المختلفة فى هذا التحديد.

وانصرف المؤلف بعد إلى النظر فى المقطع فى العربية الفصيحة، وبين أولا خواصه العامة، وأشار ثانيا إلى هيئات تركيبه وأنماطه المختلفة، مع التمثيل لهذه الهيئات وتلك الأنماط.

وأشار المؤلف إلى مفهوم النبر ودرجاته من حيث القوة والضعف، وإلى قيمته فى البناء اللغوى صوتيا وصرفيا، ودلاليا أيضا على مستوى الجملة والعبارة.

وعرض بإشارات خفيفة إلى مفهوم ما يسمى باللغات النبرية واللغات غير النبرية، كما عرض للفرق الدقيق بين "النبر" stress و"اللكنة" Accent.

الفصل الثالث: التنغيم والفواصل الصوتية. وبه مبحثان:

أولهما: التنغيم أو موسيقى الكلام والفواصل الصوتية (الوقفة – السكتة – الاستراحة)

التنغيم والفواصل الصوتية ظاهرتان متلازمتان، ولهما معا دور مهم فى تنميط الجمل والعبارات إلى أجناسها التركيبية المختلفة.

لا تخلو جملة أو عبارة منطوقة من نغمات معينة تكسو المنطوق كله. وتعرف النغمات الداخلية للمنطوق أمر يصعب الوقوف عليه. ومن ثم اكتفى معظم الدارسين بالوقوف عند النغمات النهائية للمنطوق، وهذا هو ما صنعه المؤلف فى هذا المقام، فقد أشار إلى أنماط هذه النغمات مع التوضيح بالمثال والرسم البيانى، وحاول الكشف عن دور كل نمط فى التراكيب المختلفة، وفقا لخواص هذه التراكيب ومقاماتها الاجتماعية التى تلفها.

ودلف بعد إلى ذكر شيء عن أهمية التنغيم فى التحليل اللغوى.

أما عن الفواصل الصوتية فالملاحظ أن النغمة النهائية للمنطوق تصاحبها عادة فاصلة من الفواصل الصوتية التى تناسبها، وفقا لطبيعة المنطوق ومقامه. ولاحظ المؤلف أن الوقفة تصاحب، النغمة الهابطة، دلالة على نهاية الكلام وتمامه، وأن السكتة تصاحب النغمة الصاعدة دليلا على أن الكلام لم يتم.

ولما كان من الصعب تحديد مواقع الوقفات فى العربية، فقد حاول المؤلف تعرف شيء من هذه المواقع بطريق سلبى، أى بذكر حالات مما لا يجوز الوقوف فيه أو عليه. أما السكتات فأمر ميسور، إذ تبين بعد نظر دقيق فى التراكيب المختلفة أنها ممكنة الوقوع بين طرفى أى تركيب مكون من جزءين (أو أكثر) بينهما ارتباط وثيق فى المبنى والمعنى.

وانتهي من كل ذلك إلى أن للفواصل الصوتية دورا مهما فى تنميط التراكيب وبيان أجناسها، وأن السكتة بالذات تقوم مقام الفاصلة (،) فى الكتابة، فكل منهما فاصل واصل: فاصل نطقا واصل تركيبا وبناء.

ولاحظ هنا أيضا أن اللغة العربية قدمت لنا بعبقريتها، عناصر لغوية معينة تقوم مقام هذه الفاصلة المتبعة فى الكتابة الآن.

الباب الرابع: علم الأصوات وموقعه في الدرس اللغوى. وبه فصلان:

الفصل الأول: فى المجال التطبيقى.

والفصل الثانى: فى المجال النظرى

ويأتى الباب الرابع فى نهاية المطاف لإلقاء الضوء على نقطتين مهمتين، لم يعرض لهما المؤلف بطريق مباشر فى صلب الكتاب، أو لم يقف عندهما الوقفة المناسبة.

تتمثل النقطة الأولى فى محاولة تتبع مسيرة الدراسات الصوتية عند العرب فى القديم والحديث.

أما النقطة الثانية فتتمثل فى التأكيد على أهمية الدراسة الصوتية على المستويين العام والخاص نظرا وتطبيقا.

ولقد حاول المؤلف هنا تقديم أمثلة لما يمكن أن يقوم به الدرس الصوتى من أدوار فى خدمة اللغة نظرا وتطبيقا.

وانتهي المؤلف من هذا الباب ببيان أن الدرس الصوتى سبيل أول فى تعرف خواص اللهجات والتفريق بينها، وتعرف حدودها – قدر المستطاع – جغرافيا واجتماعيا.

(٢) دراسات فى علم اللغة

دار غريب – القاهرة، ١٩٩٨م،
٣٣٦ صفحة، ١٧×٢٤ سم

ينتظم هذا الكتاب أشتاتا مؤتلفة من الدرس اللغوى. فهى – وإن لم تكن ذات موضوع واحد – تلتقى ويحتضن بعضها بعضا من البدء إلى النهاية. إنها من جهة تتناول قضايا أو مشكلات أثيرت وتثار فى الأوساط اللغوية العربية قديمها وحديثها، وهى من جهة ثانية عولجت فى هذا الكتاب علاجا يخضع لوحدة النظر المنهجية التى تعتمد على الموضوعية فى التحليل والمناقشة، وعلى الحوار مع الحقائق اللغوية ذاتها دون الالتجاء إلى أى مسلك خارجى من تأويل، أو افتراض، أو تفلسف... إلخ. ومن هنا كان الائتلاف بين هذه الأشتات، لكونها خالصة العروبة، وخاضعة فى النظر والدرس لمنهج واحد، هو منهج الوصف القائم على تسجيل الواقع فى إطار سياقه وطبيعته، بالنظر الواعى والمعالجة اللغوية الصرفة.

ويشتمل الكتاب على سبعة مباحث:

المبحث الأول: الألف والواو والياء (واى) فى اللغة العربية

"واى" هذه تدعى حروف العلة فى التراث اللغوى العربى القديم. وقد عالجها العرب، علاجا تقليديا تعوزه الدقة والوضوح، إذ قد خلطوا فى علاجها بين الرمز والصوت، الأمر الذى قاد إلى جمع من المشكلات فى التحليل والوصول إلى نتائج حقيقية، وانصرفوا فى جل مناقشاتهم إلى شىء من وظائفها الصرفية والنحوية، متناسين قيمها الصوتية التى من شأنها أن تفصح عن حقائقها ووظائفها فى البنية اللغوية. ومن ثم كان

البدء هنا بتحليل قيمها الصوتية فى العربية الفصيحة، وقد أدى هذا التحليل إلى الكشف عن طبيعتها، وإلى تصنيف هذه القيم إلى المجموعة الصوتية المعينة التى تنتمى إليها، أهى أصوات صامتة Consonants أم حركات Vowels. ثم انطلق الدرس إلى بيان وظائف كل صوت (أو نوع منه) فى البناء الصرفى والنحوى فى اللغة.

المبحث الثاني: همزة الوصل

همزة الوصل مشكلة قديمة حديثة من حيث نطقها ورسمها وموقعها فى البناء الصوتى – الصرفى للغة العربية. وقد أجاد القدماء فى حصر مواقعها وخواصها النطقية. ولكنهم لم يعرضوا بحال إلى وصفها فى البنية اللغوية: أهى لبنة أساسية فى هذا البناء، أم أنها مجرد انزلاق صوتى يسهل النطق بالساكن؟ وقد وقف البحث عند هذه النقطة الأخيرة وقفة متأنية، منتهيا إلى ما انتهى إليه الخليل من أنها "سلم اللسان" أى: تحريك صوتى يدرج اللسان منه إلى النطق بالساكن فى أنماط معينة من الكلم العربى.

المبحث الثالث: السكون فى اللغة العربية

السكون اسم لرمز هو (ــْ) فى أكثر الروايات، ولحالة صوتية سالبة، وقد اختلف الدارسون فى رمزه إلى أقوال شتى، تولى البحث الإفصاح عنها وصلاحية كل منها للدلالة على نطق سالب. ثم ركز البحث على بيان وظائف السكون (بوصفه غير متحقق نطقا) صرفيا ونحويا، الأمر الذى يسوغ ضمه إلى نظام الحركات. فهو – وإن كان عديما فى النطق – ذو وظيفة واضحة فى البناء اللغوى، شأنه شأن الحركات تماما.

المبحث الرابع: خواص صوتية تمتاز بها اللغة العربية

يعرض هذا المبحث لبعض الخواص الصوتية التى تنماز بها العربية من غيرها من اللغات التى لنا معرفة مناسبة بها. وانصرف التركيز إلى مجموعة محدودة من هذه الخواص التى يغيب عن بعض الدارسين أهميتها وقيمتها فى البنية اللغوية العربية. من ذلك مثلا: بيان الوظائف المنوعة للحركات على الرغم من قلتها العددية، فهى فى جملتها ذات قيم صوتية، وصرفية – نحوية، ودلالية كذلك، على خلاف ما يجرى فى كثير من اللغات. وأشار المؤلف كذلك إلى انفراد العربية بمجموعة من الأصوات التى لا وجود لها فى غيرها من اللغات كالضاد، أو يقل أو يندر وجودها فى لغات أخرى، (كالهمزة والقاف).

ثم درج الكاتب إلى ظاهرة التفخيم فى لغتنا، حيث بين أن التفخيم لبعض الأصوات (الصاد والضاد والطاء والظاء) ذو قيمة صوتية وأخرى دلالية، كما يظهر مثلا: فى مقابلة "طاب" بكلمة "تاب". إنه تفخيم "فونيمى" Phonemic. وهناك أنواع أخرى من التفخيم المشروط، كما فى حال: "القاف، والخاء، والعين،..." وغيرها.

المبحث الخامس: نوعية اللغة التى يتعلمها التلاميذ فى المرحلة الأولى ووسائل التقريب بينها وين اللغة الفصيحة.

بحث يحاول معالجة مشكلة عدم إلمام التلاميذ فى مرحلة التعليم الأولى باللغة الفصيحة، وغلبة العاميات على سلوكهم اللغوى. واتجه البحث فى ذلك إلى محورين رئيسيين:

أولهما: وجوب تقديم المادة العربية فى صورة سهلة ميسرة خالية من التقعر والتعقيد، بمراعاة طاقة الناشئة ومحصولهم اللغوى.

ثانيهما: الاسترشاد بالعاميات، لا بوصفها كذلك، بل بالنظر فيها محاولة لاستخلاص ما يصلح منها للتواصل العربى الفصيح

المبحث السادس: الأخطاء الشائعة فى نظام الجملة (بين طلاب الجامعات).

وهو يناقش ظاهرة منذرة بالخطر برزت إلى الوجود فى السلوك اللغوى لطلاب الجامعات العربية، وبخاصة على مستوى التراكيب. وكان البدء فى هذا العمل بتحديد مفهوم المصطلحات الواردة فى الموضوع. حيث قام المؤلف بشرح مفهوم "الخطأ" ومعايير الحكم بالخطأ أو الصواب. ثم تلا ذلك بيان مفهوم الجملة أو التركيب، مع التركيز على خواصهما وخواص مكوناتهما: من اختيار للمفردات، وموقعها، وعلاقتها بعضها ببعض، والإعراب.

وتدرج البحث بعد إلى النقطة الأساسية، بتجميع أمثلة منوعة من الأخطاء فى هذا الإطار، والقيام بتنميطها وبيان الخطأ فى كل نمط منها.

وخرج البحث من ذلك بنتيجة مفزعة، حيث تبين أن الخطأ ليس فى الإعراب ووجوهه فقط، بل امتد أمره إلى الخواص الأخرى للتركيب من اختيار، وموقعية، وعلاقات داخلية بين مكونات الجملة. وأنهى المؤلف بحثه بضرورة تقديم قواعد العربية فى صورة نصوص كاملة، حتى لا يتركز العمل على وجه دون آخر من وجوه خواص التراكيب أو الجمل.

المبحث السابع: التعريب بين التفكير والتعبير

انصرف البحث فى البدء إلى تحديد هذا مفهوم التعريب، فتبين أن

له أربعة مفهومات فى الثقافة العربيـة، قـديمها وحـديثها علـى سـواء. وأشار المؤلف إلى أن المفهوم المناسب لسياقنا هـذا هـو "توظيـف اللغـة العربيـة" وحـدها فـى كـل الأعمـال العلميـة كتبـا وأداء منطوقـا فـى المحاضرات وما إليها.

ويقرر المؤلف أن القضية ليست قضية التعبير باللغة العربية، وإنمـا ينبغى أن يوجه نداء التعريب إلى تعريـب الفكـر أولا. علينـا فـى كـل حال وآن أن نفكر تفكيرا عربيا عند الانشغال بهـذه العلـوم وغيرهـا، فكيفما نفكر يكن تعبيرنا. أما مجرد التعبير باللغة العربيـة دون الـتفكير بها وفيها، فلا غناء فيه، لأنه فى هذه الحال لا يعـدو أن يكـون ترجمـة لفكر أجنبى، وليس هـذا هـو المقصـود، أو أنـه يصـل بنـا إلى غاياتنـا القومية.

وختم البحث بوجوب إلقاء مسئولية التعريب بهذا المفهوم الـذى اختاره المؤلف إلى هيئات علمية مشكلة بمعايير دقيقة، وبين يديها خطة مرسومة للقيام بهذا العمل القومى الكبير.

(٣) دور الكلمة فى اللغة

ترجمة كتاب WORDS&THEIR USE

BY

STEPHEN ULLMANN

دار غريب – القاهرة، ١٩٩٧م

٢٧٦ صفحة، ١٧×٢٤سم

قام بشر بترجمة هذا الكتاب لأهميته فى الدراسات اللغوية، فالكتاب يعرض لمسائل لغوية متنوعة كثيرة، ولكنها – كلها أو جلها – تدور حول موضوع رئيسى واحد هو "المعنى". ويمثل المعنى فى الدراسات اللغوية اليوم نقطة أساسية فى هذه الدراسات، فقد جعله فيرث أساس هذه الدراسة كلها وهدفها الأول. فلا عجب إذن أن يركز المؤلف بحثه على هذه القضية الخطيرة

وتتلخص أهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية فى نقطتين:

أولا: على الرغم من أن الموضوع الأساسى ليس بجديد، فالنقاط الفرعية التى أثيرت فى ثناياه تشهد ببراعة المؤلف فى ربط القضايا العلمية بعضها ببعض ربطا يؤدى إلى تكوين بحوث جديدة مبتكرة، "فالمعنى المتعدد" بصورته المعروضة بالكتاب – ما أظنه إلا بحثا جديدا، لم يأت

به أحد قبله فيما نعلم. فهذا العنوان البسيط ينتظم عددا من القضـايا التى يعرفها الناس جميعا، ولكنهم يذهبون فى معالجتها مذاهب شتى، من ذلك مثلا: الترادف والمشترك اللفظى والتضاد والحقيقـة والمجـاز. فبعضها، فى نظرهم، جزء من بحوث البلاغة، وبعض آخر مكانه "متن اللغة"، وبعض ثالث قد يجدون له مكانا هنا ومكانا هناك. ولكن "أولمان" استطاع أن يعثر على خاصة مشتركة تجمع بين هذه القضـايا جميعـا. هذه الخاصة هى فكرة التعدد: فى اللفظ أو فى المعنى أو فيهما معـا، ومن ثم عالجها كلها فى إطار واحد.

ثانيا: يقدم لنا هـذا الكتـاب وجهـة نظـر جديـدة فـى معالجـة المعنـى اللغوى، وقد بين المترجم أنه لايتفق مع المؤلف فى هذه الوجهـة، ولكنه يؤكد أنهـا أثـارت كـثيرا مـن الشـكوك حـول المفهومـات القديمة لعدد من القضايا اللغوية والتقليدية، وهذا الأمر هو الذى دفع المترجم إلى النظر في هذه النقاط من جديد فى كتابه "دراسات فى علم المعنى". وأن يتناولها من زوايا مختلفة.

ولقد تعرض المؤلف فى هذا الكتاب لمسائل مهمة تتصل بالمعنى مـن قريب أو بعيد. ومن ثم نرى المؤلف يناقش فيما ينـاقش موضـوع الفـرق بين "الكلام واللغة"، والفرق بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، كما يعـرض للرموز اللغوية ووظيفتها فى الاتصال الإنسانى... إلخ.. فمناقشة الفـرق بين الكلام واللغة مثلا لهـا أهميـة خاصـة مـن وجهـة نظـر المؤلـف فـى

موضوع المعنى. إنه يرى أن الكلمة الواحدة قد تكون ذات معنى رئيسى ومعان أخرى فرعية أو ثانوية، وهذا الرأى مبنى على الإيمان بالفرق بين الكلام واللغة. فالمعنى الرئيسى هو ذلك القدر الثابت من المعنى والموجود فى اللغة المعينة، أما المعانى الأخرى، الهامشية والفرعية، فلا تتحدد إلا بالسياق والمقام فى أثناء الكلام الفعلى. وتتضح أهمية مناقشة الرموز اللغوية فى استغلالها فى بيان العلاقة بين اللفظ والمعنى: أهى علاقة طبيعية أم هى عرفية تقليدية؟ وبهذه الطريقة يمكن أن نعرف السر فى دراسة هذه القضايا ونحوها فى بحث خصص أساسا لقضية المعنى.

وقد نبه المترجم القارئ إلى أن ترجمة العنوان Words&Use their إلى "دور الكلمة فى اللغة" لا يناقض موضوع الكتاب الرئيسى. فالكلمة هى أداة المعنى، أو هى – كما قرر المؤلف نفسه – أصغر وحدة من وحدات المعنى التى تتكون منها الوحدات الأخرى، كالعبارة والجملة. والكلمة – فوق هذا وذاك – تتمتع بقوة سحرية خارقة، وتؤثر فى نفوسنا، وتعدل من سلوكنا، بسبب ما ارتبطت به من صبغة قومية، وما أكسبته من منزلة اجتماعية تقليدية.

واختيار هذا العنوان بالذات مكن المؤلف من مناقشة بعض المسائل الأخرى التى قد يظن بعضهم أنها ليست داخلة فى نطاق بحوث المعنى. من ذلك: قضية انقراض الكلمات وسقوطها من الاستعمال، وحظر

استعمال كلمات معينة وتفضيل كلمات أخرى عليها. وليس من شك فى أن الكلمة بوصفها مجموعة من الأصوات لا قيمة لها، وإنما قيمتها بمعناها ومدلولها الذى ارتبطت به. على أن المؤلف قد استباح لنفسه الخروج من نطاق الدراسات اللغوية بمعناها الدقيق حين ناقش فى الفصول النهائية من الكتاب نقطتين مهمتين فى بابهما، وهما تأثير الكلمات فى التفكير وكفاية هذه الكلمات بوصفها وسيلة من وسائل الاتصال الثقافى. على أن القارئ المنصف لا يسعه إلا أن يحكم بوجود علاقة من نوع ما بين هاتين النقطتين وبقية القضايا التى تنتظمها الدراسة.

وقد تحدث المترجم فى مقدمة الترجمة عن المؤلف ودوره فى الدراسات اللغوية، وطريقته فى تأليف كتابه.

ثم ذكر المترجم بعض الأمور الفنية التى أحدثها فى ترجمة الكتاب،مثل:

١ - الاستغناء عن أمثلة المؤلف أحيانا والإتيان بأمثلة عربية بدلا منها. وقد طبق هذا على بعض الأمثلة الطويلة التى تشغل فقرة أو أكثر، كما حدث فى صفحتى ٨٦، ٨٧، حين أورد المترجم أمثلة من الشعر العربى فى صلب المتن، بدلا من اقتباسات المؤلف.

٢- توضيح بعض عبارات المؤلف وجمله بعبارات وجمل عربية مصاحبة لها، ويستطيع القارئ على أية حال أن يدرك هذا التغيير، الذى ما قصد به المترجم إلا التيسير عليه وجعل الكلام مستساغا مقبولا لديه.

(٤) علم اللغة الاجتماعى

مدخل

دار غريب- القاهرة، ١٩٩٧م
٤٠٠ صفحة، ١٧×٢٤سم

بين المؤلف فى مقدمة الكتاب أن هذا اللون من الدرس فى صورته الحديثة مازال محروما من الاهتمام فى الساحة العربية ولم تطرح فيه أو حوله أعمال علمية ذات قيمة فى وطننا العربى على اتساعه، باستثناء ذلك الكتاب القيم المنقول عن اللغة الإنجليزية، والذى قام بترجمته إلى اللغة العربية الدكتور محمود عبد الغنى عياد الأستاذ بجامعة الكويت.

ومن ثم يعد هذا الكتاب انطلاقة عربية إلى الدخول فى هذا الميدان، ولقد حرص المؤلف فى هذه الدراسة الحاضرة على تقديم أفكار الموضوع برؤية عربية، عمادها النظرة فى البنيتين اللغوية والاجتماعية العربيتين وما بينهما من تبادل، حتى نقف – بوصفنا عربا– على أحوال "بيتنا" قبل أو مع ما يجرى فى "بيوت" الآخرين، وحتى يكون لنا نصيب أو موقع من نوع ما فى هذه الساحة العلمية الجديدة نسبيا.

وقد جاء الكتاب في سبعة فصول:

الفصل الأول: اللغة بين الفرد والمجتمع

يتناول هذا الفصل فى مجمله بيان العلاقة بين اللغة والإنسان، وأشار المؤلف فيه إلى أنهما متلازمان وملتحمان وجودا وعدما، كل يعطى ويأخذ، وبقدر ما يكون هذا الأخذ والعطاء يكون نصيبهما من مدارج التأثير والتأثر. وبين فيه بعض الآراء فى وظيفة اللغة فى المجتمع، حيث تصارعت هذه الآراء حول قضية ما تزال تثار بين حين وآخر، وهى مدى "تعبيرية" اللغة عن الفكر، ومدى فاعليتها الواقعية بوصفها أداة عمل وإنجاز، شأنها فى ذلك شأن الأفعال ذاتها.

وأشار فى هذا الفصل كذلك إلى اهتمام الدارسين بلغاتهم وإلى تدرج هذا الاهتمام من النظرة السطحية العابرة إلى النظرة العلمية المتأنية، على الرغم من أن العامة يأخذون لغتهم وينظرون إليها كما لو كانت شيئا طبيعيا لا يستحق النظر أو التأمل.

الفصل الثاني: علم اللغة الاجتماعي

وقد قام المؤلف فى هذا الفصل بمحاولة التعريف بعلم اللغة الاجتماعى، ورصد المصطلحات المختلفة التى توظف للإشارة إلى حقل الدراسة فيه.

وحاول – فى سياق تحديد مجاله – بيان العلاقة بينه وبين علم اللغة، كما حاول الإشارة إلى موقف علماء اللغة وعلماء الاجتماع من هذا الفرع من الدرس.

وبين المؤلف أن هناك مدراس لغوية ليس لها اهتمام يذكر بعلم اللغة الاجتماعى، وفقا لمناهجها فى النظر إلى اللغة، وأن مدارس أخرى تهتم به اهتماما ملحوظا، بل إنها تسير فى عملها تحت مظلته.

وقد أشار فى هذا الفصل كذلك إلى علاقة هذا العلم بالعلوم الإنسانية الأخرى، وإلى أنه ينتظم تحت مظلته فروعا متعددة لها صلة بعلم الاجتماع وعلم اللغة، بوصفهما حقلين متوازيين فى الاهتمام بالإنسان ومناحى حياته الثقافية والسياسية والاقتصادية إلخ...

الفصل الثالث: الفكر الاجتماعى فى الدرس اللغوى عند العرب

قرر المؤلف فى هذا الفصل أن العرب – على الرغم من "معياريتهم" فى تقعيد العربية – كانت لهم نظرة اجتماعية ملحوظة فى هذا التقعيد، وإن لم ينصوا على ذلك نصا، وأورد هناك بعضا من الأدلة التى تؤيد رأيه، فأشار إلى تنوع مصادر مادتهم، وإلى طرائق جمعها، وإلى النظر فى التنويع اللغوى المتمثل فى اللهجات ونحوها من أساليب الكلام.

كما أورد أمثلة واقعية من أعمال اللغويين المحترفين، جرى التقعيد فيها برؤية اجتماعية واضحة.

وختم البحث فى هذا الفصل بالإشارة إلى أن الرؤية الاجتماعية للغة لم تكن مقصورة على اللغويين المحترفين، بل تعدتهم – بصورة من الصور – إلى بعض الأدباء والمفكرين، كالجاحظ فى بعض أعماله وابن خلدون فى مقدمته.

الفصل الرابع: التنوع اللغوى

وبه خمسة مباحث

المبحث الأول: اللغة بين التنوع والتوحد

وفيه بين المؤلف أن اللغة قد تنحو نحو التنوع, وقد تتخذ اتجاها معارضا بسلوكها نحو التوحيد, وتشكيل صيغة عامة, تسمى اللغة المشتركة. وأشار إلى آراء العلماء فى ذلك, وأكد أنه ليس من طبيعة اللغة الميل بنفسها إلى هذا الاتجاه أو ذاك. إنما يرجع الأمر فى كل ذلك إلى عوامل ثقافية واجتماعية وبيئية وجغرافية, من شأنها أن تدفع باللغة إلى أى من الاتجاهين, ووضح الأمر فى ذلك بمجموعة من هذه العوامل, ليتبين لنا شيء من أسرار ميل اللغة إلى التنوع أحيانا وإلى التوحد أحيانا أخرى, وخُتِم المبحث بتقرير أن اللغة لابد لها من أن تتنوع, وأن التوحد التام أمر غير وارد.

المبحث الثانى : فى مفهوم اللغة

حاول المؤلف فى هذا المبحث تحديد مفهوم اللغة من وجهة النظر العامة أى بحسب نظرة الرجل العادى لها, ومن وجهة نظر المتخصصين. وحاول الإشارة المناسبة إلى مجموعة من الآراء المختلفة فى ذلك, وفقا لمنهج الدارسين فى التعامل مع اللغة، لغويين كان هؤلاء الدارسون أم اجتماعيين، أم علماء اللغة الاجتماعيين. وأشار إلى معايير كل فى الحكم بهذا الرأى أو ذاك. ووقف وقفات مناسبة عند بعض المدارس ذات الأهمية الخاصة فى الدرس اللغوى، كمدرسة دى سوسور وجماعة التوليديين التحويليين، لتوضيح ما رأوه من مفهومات اللغة. وقد ظهر من جملة ما قرر هؤلاء وأولئك من اللغويين أن بينهم وبين علماء اللغة الاجتماعيين فروقا واضحة فى النظر إلى اللغة ومفهومها. وانتهى المؤلف من كل ذلك إلى حقيقة ثابتة، وهى أن اللغة مهما تعددت الآراء فى تحديد معناها لابد لها أن تتنوع قليلا أو كثيرا، وأن هذه التنوعات كثيرة، وهو ما أشار المؤلف إلى أمثلة منها فى المبحثين التاليين.

المبحث الثالث: أنماط عامة من التنوعات اللغوية

بين المؤلف فى هذا المبحث أن اللغة، مهما اختلف فى تحديد المقصود بها، لابد لها من أن تتنوع، وقام بتصنيف هذه التنوعات، فبدأ

بالحديث عن الجناحين الكبيرين لأية لغة، وهما ما سماهما "اللغة النموذجية" و"اللغة المحكية أو الدارجة". وحاول بيان الحدود بينهما بوصفهما جناحين للغة المعينة، كالعربية مثلا. وانتهي المؤلف إلى أن بينهما تداخلا وتشابكا، ووضح ذلك بالوقوف عند اللغة العربية التى يبدو فيها هذا التداخل والتشابك واضحا. ومع ذلك حاول الإشارة إلى بعض المعايير التى يمكن الإفادة منها والاستعانة بها، عند محاولة التفريق بينهما، وبيان حدود كل منهما. وكان ذلك بالإشارة إلى خواصهما اللغوية، ومجالات توظيفهما ودورهما فى المجتمع المعين، وتبين للمؤلف أن "النموذجية" أخص و"المحكية" أعم فى التوظيف، فهذه الأخيرة إطار مشترك بين الجميع.

المبحث الرابع: أنماط خاصة من التنوعات

- التنوعات المحلية Regional Variations
- التنوعات الاجتماعية Social Variations

أشار المؤلف فى هذا المبحث إلى وجود شظايا كلامية كثيرة تعيش جنبا إلى جنب مع الجناحين الكبيرين: اللغة النموذجية والعامة المحكية أو الدارجة، وتتفرع عنهما مجتمعين أو منفردين: وهذه الشظايا يصعب حصرها فى هذا المقام، واختار تصنيفها إلى صنفين بناء على خواص مفردات كل صنف ووظيفته. وجاء أحد الصنفين باسم "التنوعات

المحلية"، والثانى أطلق عليه "التنوعات الاجتماعية". والتنوعات المحلية قد تسمى التنوعات أو اللهجات الجغرافية. وهى فى عمومها تقع تحت مظلة اللغة المحكية، وإن كان بينها وبين النموذجية تقارض أحيانا.

وختم المؤلف المبحث بتقرير أن هذه التنوعات جميعا محلية كانت أم اجتماعية بينها تشابك وتداخل إلى حد يصعب بيان الحدود الفاصلة بينها فصلا حاسما.

المبحث الخامس: بين اللغة واللهجة

الرأى عند بعض الدارسين ألا فرق من وجهة النظر العلمية الدقيقة بين اللغة واللهجة، فما يسمى "لغة" قد يكون لهجة متفرعة من أصل سابق، وما يسمى "لهجة" يمكن عده لغة بانتظامها قواعد وسمات منضبطة، ولها استقلالها لغويا ووظيفيا. إن الفرق بينهما إن كان هناك فرق، كالفرق بين المجتمع الأكبر والمجتمع الأصغر.

وقوم يرون التفريق، ولكنهم حاروا فى تعيين الحدود الفاصلة بينهما، وفى تعيين حدود كل من اللغة واللهجة جغرافيا فى الأقل، ومع ذلك قرروا أنه يمكن الوصول إلى نوع من التفريق بين القبيلين بتتبع واستقصاء خواص كل منهما لغويا فى أقل تقدير. وانتهى رأيهم بالقول بوجود ما يسمى باللهجات أو التنوعات اللغوية، جغرافية كانت أم اجتماعية.

حاول المؤلف فى هذا الفصل بيان العلاقة بين اللغة والثقافة، وقرر أنها علاقة الجزء بالكل، فاللغة أخص والثقافة أعم، وأن بينهما تأثيرا وتأثرا دائمين... فللغة دورها البالغ فى البناء الثقافى، وللثقافة أثرها الملحوظ فى البناء اللغوى.

واستقر للمؤلف من واقع خبرته – أن بناءنا اللغوى والثقافى بناء غير متكامل، ينقصه التناسق والتلاؤم بين وحداته، ويفصح عن نشازه وتنافره، لاحتوائه على عناصر متباينة شكلا ومضمونا، فلدينا فى الجانب اللغوى أنماط وأشتات من المستويات المختلفة فى قليل أو كثير. فهناك الفصحى أو الفصيحة والمحكية الدارجة واللهجات المتنوعة جغرافيا. ولدينا فى الجانب الثقافى ضروب من الثقافات المتباينة، كثقافة الخاصة وثقافة العامة، وهذه الأخيرة نفسها ذات ألوان شتى، تتنوع بتنوع الفئات والطبقات الاجتماعية.

ثم تحدث المؤلف عن السبيل إلى الإصلاح، وطرقه، موضحا وجهة نظره فى ذلك حيث يرى أن سبيل الإصلاح هو أخذ اللغة الفصيحة منطلقا إلى تشييد البناء من جديد، مع فتح نوافذها لتلقى ما ينعشها ويجد من حيويتها ويزيد فى مقاومتها لعوامل الضعف والجمود. وذلك بالنظر فى ماضيها وحاضرها، بمحاولة تقريب التراث

وتبسيطه وإخراجه فى صورة ميسرة، مع محاورة حاضرها محاورة جادة بتبسيط تقعيدها وتقديمها إلى العامة والخاصة بصورة تجذب ولا تنفر، تدفع إلى الأخذ بها، لا الهروب منها. وذلك له عوامل كثيرة منوعة، أهمها فى نظرنا محاولة توظيفها نطقا، وهنا تأتى وسائل الإعلام المنطوقة فى قمة هذه العوامل.

الفصل السادس: اللغة والدين

الدين أهم العوامل الاجتماعية ذات الفعالية المتبادلة بينها وبين اللغة. فالدين يمثل نقطة الارتكاز التى تدور حولها كل مظاهر الحياة الاجتماعية، فبه تسترشد، ومنه تنسج خيوطها وإليه تنسب وتعود. وتأتى اللغة على قمة كل هذه المظاهر، فهى العاكسة لحقيقتها والمعبرة عن صورها، والمفصحة عن أساليبها وأنماطها. وهكذا تكون العلاقة بين الدين واللغة أشد ما تكون العلاقات وأوثقها. فالدين هو المصدر الخصب الذى يمد اللغة بعوامل النمو والازدهار والبقاء والاستمرارية. واللغة من جانبها تحمل الدين على جناحيها: تنشره وتفسره، وتوسع من آفاقه.

ومظاهر التأثير والتأثر المتبادلة بين الدين واللغة كثيرة، وإن اختلفت هذه المظاهر من بيئة إلى أخرى اختلافا نسبيا بحسب أحوال البيئات المختلفة وظروفها. تتمثل هذه المظاهر فى عمومها فى التواكب والتثاقف والتحاور بين القبيلين.

وبالنسبة للغة العربية فهىجزء من حقيقة الإسلام لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه، والإسلام بدوره نشرها وخلدها بقرآنه العظيم {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}.

الفصل السابع: اللغة والقومية:

على الرغم من اختلاف الدارسين فى مقومات القومية، فإن بينهم جميعا اتفاقا مشتركا على أهمية اللغة فى بناء القومية وتعميقها، لأنها المرآة الحقيقية التى تبرز خواص المجتمع، وهى القادرة على توحيد أفكار أهليها واتجاهاتهم وانتماءاتهم. ولقد حرصت الأمم ذات الحضارات على الاهتمام بلغاتها القومية، والعمل على وحدتها والحفاظ على كيانها، حتى لا تتعرض للتفكك والانحلال والصيرورة إلى مشارب وألوان مختلفة من القوميات فى إطار المجتمع الواحد.

ويقرر المؤلف أن تعلم اللغات الأجنبية أمر حيوى بل واجب، شريطة ألا تطغى هذه اللغات على لغتنا القومية، حتى لا تنطمس قوميتها ولا يتهالك بناؤها.

ثم يقرر المؤلف فى النهاية أن وحدة اللغة تعنى وحدة القومية وتعميقها، وتفرق اللغة إلى أمشاج من المستويات يعنى تهديد القومية، وهدم بنيتها أو – فى أقل تقدير – إصابتها بالنتوء والندوب.

(٥) صفحات من كتاب اللغة

دار غريب- القاهرة، ٢٠٠٤م

٤٠٠ صفحة، ١٧×٢٤ سم

هذا الكتاب كما ينبئ عنه عنوانه – ينتظم بحوثا ودراسات تعرض لمواضيع ومسائل لغوية عامة ذات ألوان منوعة تنوع خيوط النسيج اللغوى المؤتلفة ألوانه، المنظومة فى اتساق، والمشكلة فى النهاية كلا متكاملا، هو اللغة.

وهذه البحوث صنفت فى ثلاثة فصول يشكل كل فصل منها جزءا من هذا الكتاب:

الفصل الأول: الرأى فى نشأة اللغة الإنسانية

انشغل هذا الفصل بمتابعة عاجلة لمجمل ما قيل عن نشأة اللغة. والقول فى نشأة اللغة الإنسانية قول واسع عريض، زمانا ومكانا. عرض له الدارسون من فلاسفة ومناطقة ولغويين على فترات من الزمن المختلفة فى كثير من أنحاء العالم وأتوا فى ذلك بآراء كثيرة منوعة تتفق فيما بينها أحيانا وتختلف أحيانا أخرى. يتركز مجمل الخلاف بينهم فى نقطة عامة واحدة، هى: اللغة هبة من الله تعالى للإنسان أم هى من صنع الإنسان نفسه؟ وذهب كل فريق فى تأييد رأيه وتوثيقه مذاهب مختلفة تتسق مع رؤيته الخاصة للموضوع.

ولم يقتصر الخلاف بينهم على هذه الفكرة العامة المركزية في الموضوع، إذ انتحى آخرون مناحي افتراضية أخرى، يعز حصرها في هذا المقام. فهناك من رأى أن اللغة نشأت في البدء في صورة انفعالات صوتية، وآخرون أرجعوها إلى محاكاة الطبيعة. وفريق ثالث يرى أنه من الأوفق العود إلى لغة الأطفال ولغة الشعوب البدائية، وإلى تاريخ اللغات الإنسانية كلها، حتى يتبين وجه الحق في الموضوع.

وللعرب أيضا مداخلات معروفة مشهورة تتلخص في اتجاهين متقابلين، يتمثلان في القول بأنها توقيفية من الله تعالى وأنها مواضعة واصطلاح.

وانتهى هذا المبحث بتسجيل رأى المؤلف الخاص في الموضوع. وهو أن للغة جانبين، جانب الكفاية أو المقدرة، وهي منحة من الله للإنسان السوى بعامة، وجانب التفعيل وهو يتمثل في الأداء الفعلي المنطوق في صورة أصوات منسوقة نسقا معينا وفقا للبيئة الخاصة والحاجة والظرف في دنيا الناس. وهذا يعني أن الأسوياء من البشر جميعا متفقون ومتساوون في تلك المنحة الربانية وهي الكفاية والمقدرة، ولكنهم مختلفون في التفعيل والبرمجة، وهذا يفسر لنا سر اختلاف لغات الناس على أرض الله.

الفصل الثاني: في المكتبة اللغوية

وقد وقع اختيار المؤلف في هذا الفصل على ستة كتب، بينها وجوه اتفاق ووجوه افتراق. فهي جميعا تتفق في انتمائها إلى الدرس اللغوي بوجه عام، ووقوعها تحت مظلته، ولكنها تفترق فيما بينها بانشغال كل منها بقضايا حقل معين ذي خصوصية محددة من حقول البحث في اللغة.

وقد قصد المؤلف باختيار هذه الآثار اللغوية الستة إلى أمرين: تعريف موجز يمثل النشاط اللغوى العلمى عند العرب. وهو نشاط جامع منوع الاتجاهات والأفكار والمستويات. وطرح الأمثلة أو النماذج من الأعمال القديمة والحديثة معا: إنما قصد به إلى ربط الحديث بالقديم.

الكتاب الأول: العين للخليل بن أحمد

أول معجم عربى اعتمده العارفون، وهو رائد المعجمات العربية زمنا ومادة ومنهجا. بنى الخليل معجمه الموسوم "كتاب العين" على أسس ثلاثة لم يسبق إليها، هى: الترتيب الصوتى للحروف، والتصنيف وفقا لبنية الكلمات وأوزانها، وفكرة التقاليب.

ولقد كان للكتاب تأثيره الكبير فى أعمال الدارسين من بعده، إذ كان المنطلق الحقيقى إلى قيام دراسة لغوية جديدة، هى صناعة المعجمات بالمعنى العلمى الدقيق، كما كان له الفضل فى ظهور مصطلحات لغوية غير مسبوقة. من أهمها مصطلح "الذلاقة" .

وتبدو رحلة الكتاب أكثر وضوحا وأعمق تأثيرا فى ثلاثة اتجاهات خاصة. أولها: تأثيره فى قيام مدرسة معجمية معينة، اتبعت طريقته فى جملتها وأكثر تفاصيلها، وسميت "مدرسة العين". أما الاتجاه الثانى فيتمثل فى ظهور أنواع أخرى من المعجمات، اتفقت معه فى شىء واختلفت فى شىء أو أشياء أخرى. ويتمثل الاتجاه الثالث فى ذلك المبدأ الجديد وهو مبدأ ترتيب الحروف ترتيبا صوتيا بحسب مواقعها فى جهاز النطق. ولقد كان لهذا المبدأ صدى واسع فى أعمال الخالفين من بعده، حيث تناولوه بالنظر بالاتفاق أحيانا، أو بالتعديل والتطوير أحيانا أخرى.

الكتاب الثاني: الكتاب لسيبويه:

هـو الكتـاب الأوثـق والأشـهر فـى مجـال الدارسـات الصـوتية والصرفية والنحوية، قل أن يضـارعه فيهـا غـيره، فهـو بمثابـة دسـتور العربية الأول. استقى سيبويه مادته الأساسية من القرآن الكريم، ومن كـلام العـرب شـعرا ونثـرا، ولكنـه كـان قليـل الأخـذ مـن الحـديث الشريف، كما لم يفته الاهتمام باللهجات المختلفة.

أما منهجه من حيث ترتيب أبواب الكتاب وتقديم مادتـه فقـد جـاء مشوبا بشىء من التجاوز فى التنظيم والترتيب، حيـث تلاحـظ اخـتلاط المادة بعضها ببعض، كاختلاط بعض مسائل الصرف بمسـائل النحـو دون داع منهجى يسوغ ذلك، كما تلاحظ غموض عناوين المواضيع وطولها.

وبين المؤلف أن سيبويه اتبع فى كتابه المنهج التسجيلى التقريـرى، وإن بدت فيه أحيانا بعض الافكار المنطقية الفلسفية.

الكتاب الثالث: خصائص العربية لابن جنى:

أراد به صاحبه اللغوى الفيلسوف والفيلسوف اللغوى ابـن جنـى أن يفصـح عـن أسـرار اللغـة وخصائصـها التـى تنمـاز بهـا. تنـاول كتـاب الخصائص كثيرا من المواضيع والقضايا اللغوية التـى تقتضـى نظـرا ثاقبـا وتوجيها مقنعا، لخفاء أسرارها أو صعوبة استيعابها على بعض الدارسين.

ولم يفته أن يقدم نمـاذج مـن هـذه القضـايا علـى كـل المسـتويات اللغوية، من أصوات وصرف ونحو ودلالة، فيأتى عليها جميعا بالشـرح والتحليل وإبداء الرأى غير المسبوق فى بابه ولم يكتف الرجل بـذلك، بل كان يعرج من وقت إلى آخر على بعـض المسـائل العامـة التـى لا

تخص اللغة وحدها، كالكلام على نشأة اللغة، وظهور اللهجات والرطانات المختلفة، ومعايير الصواب والخطأ فى اللغة... إلخ.

وكان ينهج فى كل ذلك نهج التحليل العقلى المشوب بشيء كبير من التفكير الفلسفى والمنطقى نازعا نحو التعليل والتأويل أحيانا. وأتى كل ذلك بأسلوب جزل رصين ذى مسحة أدبية رائعة، تغرى القارئ على المتابعة والعود إلى ما يقول ابن جنى مرة ومرات. والكتاب بهذا ولهذا يحسب عند الدارسين المرجع الأول فى التفسير والتحليل والتعليل لجمل ما عجز عنه الآخرون فى استيعاب بعض قواعد العربية وقوانينها.

الكتاب الرابع: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى:

كتاب رائد فى بابه، لم يحفل بالألفاظ أو قواعد اللغة منزوعة من الكلام، أو بتحليل هذه القواعد وتعليل وجوهها، وإنما انصرف جهده إلى الكلام نفسه وطرائق تأليفه ونظمه، على وجه يضمن صحته، بل وامتيازه فى الأداء مبنى ومعنى. وقد قصد عبد القاهر فى البدء إلى بيان أوجه الإعجاز فى لغة القرآن وسر هذا الإعجاز ومعاييره. وهداه فكره إلى أن إعجاز القرآن يكمن فى بلاغته وفصاحته وقوة بيانه. وكان عليه حينئذ أن يبين أوجه هذه البلاغة والفصاحة، وانطلق من ذلك إلى رسم فكرته الرائدة المعروفة بالنظم الذى يعنى به كيفيات الصياغة ووجوهها وخواصها البيانية.

وفكرة النظم هذه تلتقى التقاء مباشرا مع مفهوم النحو بالمعنى الحديث "علم التراكيب" الذى يعنى بالنظر فى أربع جهات متصلة غير منفصلة. هى الاختيار الملائم للألفاظ ومواقعها فى التركيب، والارتباط الداخلى بين هذه الألفاظ أو الوحدات، ثم الإعراب (فى اللغات المعربة، كالعربية).

وقد أتى عبد القاهر فى كتابه هذا الرائد على هذه الجهات كلها بطريق مباشر أو غير مباشر، حتى أصبحت الفكرة النظمية هذه نظرية، لها حدودها وأبعادها.

الكتاب الخامس: دلالة الألفاظ:

ركز الدكتور إبراهيم أنيس فى هذا الكتاب على مستوى معين من الدرس اللغوى، هو البحث فى الدلالة. والبحث فى الدلالة هو بحث فى كل المستويات اللغوية، صوتية وصرفية وتركيبية، بطريق مباشر أو غير مباشر. وعلى الرغم من التركيز فى الكتاب على دلالة الألفاظ فإنه لم يهمل العود إلى وظيفة الأصوات والصيغ والتراكيب لبيان دورها وقيمها فى تحديد معنى اللفظ المعين.

وقد اعتمد الدكتور أنيس فى منهجه على وصف الواقع فى الكلام الفعلى، دون افتراض أو تخمين أو تأويل وتعليل.

ولم يكتف صاحب الكتاب بهذه الإشارات العامة، بل انصرف من وقت إلى آخر إلى ظواهر دلالية مهمة، تصيب معنى اللفظ أو الصيغة أو التركيب. فأشار إلى فكرة التطور فى الدلالة لأسباب ثقافية اجتماعية خارجية أو لأسباب داخلية ترجع إلى بنية الصيغة صوتيا وصرفيا أو إلى موقعها فى التركيب المعين. تكلم عن المعنى الأساسى أو العام للفظة المعينة، وإلى معانيها الهامشية التى تكتسبها اللفظة، كما تكلم عن الحقيقة والمجاز.. إلخ.

ولم يفته أن يشير إلى الترجمة وصعوبتها من الناحيتين النظرية والفنية.

الكتاب السادس: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربى):

كتاب بمثابة "متن" فى علم اللغة الحديث، أراد به صاحبه تعريف المثقف العربى بهذا العلم الجديد نسبيا فى بلادنا العربية. وقد حرص مؤلفه المرحوم دكتور محمود السعران على أن تكون مادة الكتاب فى صورة تخدم القارئ وتجذب انتباهه إلى هذا اللون من التفكير الإنسانى، وفتح آفاق أعرض وأوسع للدرس أمام طلاب اللغة والمشتغلين بها.

ومن ثم انصرف فى البدء إلى بيان مفهوم علم اللغة، وتصنيفه علما له كيانه واستقلاله. ونحا بعد نحو بيان مستويات الدرس اللغوى التى تقع تحت مظلة هذا العلم. فتحدث عن الأصوات وكيفيات معالجتها، منتقلا إلى علم الصرف والنحو والدلالة، موضحا فى كل حالة مفهوم هذه المستويات ومسئوليتها فى الدرس اللغوى، بحيث تتآلف وتتكامل فيما بينها لتشكل بناء ذا حدود ورسوم معينة، تميزه من غيره من العلوم الإنسانية.

والسعران لم يتبع فى تقديم مادته وتحليلها منهجا معينا من مناهج الدرس اللغوى، واضعا فى حسبانه أن هذا الكتاب إنما قصد به التعريف العام لهذا العلم، وما يجرى فى حقله من آراء وأفكار مختلفة، دون الوقوف عند مدرسة معينة أو اتجاه فى البحث خاص. ومع ذلك لم يفته أن يقف وقفات خاصة عند منهجين اثنين لهما الشهرة والغلبة فى العمل بهما وقت صنع هذا الكتاب، ومازال لهما السيطرة حتى الآن فى الدرس اللغوى الحديث،هذان المنهجان هما المنهج الوصفى والمنهج التاريخى.

وهكذا يجد الكتاب لنفسه موقعا متميزا فى قافلة الآثار اللغوية الحديثة، بما انتظمه من معارف ومبادئ أساسية واتجاهات مختلفة فى المجال الذى خصص له، وهو علم اللغة بمفهومه الحديث.

الفصل الثالث: أشتات مؤتلفات:

ينتظم هذا الفصل عددا من البحوث اللغوية التى أجريت على فترات من الزمن مختلفة، مساوقة لظروفها وسياقها الاجتماعى والثقافى. كل واحد منها ينحو نحوا معينا من مستويات الدرس اللغوى، ولكنها جميعا تتألف فيما بينها بالانتماء إلى حقل واحد، هو علم اللغة بالمعنى الواسع العريض، وتهدف إلى غاية واحدة، هى خدمة العربية ونفع أهليها على سواء.

١ - منهج فى تعليم اللغة العربية للناطقين باللغات الأخرى:

يتمثل فى مجموعة من المحاضرات التى ألقاها المؤلف على مدرسى اللغة العربية الذين اختارتهم وزارة التربية والتعليم لتدريس هذه اللغة فى بعض البلاد الأفريقية والآسيوية. وكان ذلك فى دورة تدريبية عقدت بمركز التدريب بمنشية البكرى عام ١٩٦٥م.

وكل ما صنع فى هذه المحاضرات لم يتجاوز الإشارة إلى المبادئ الأساسية التى ينبغى الأخذ بها فى تعليم اللغات الأجنبية بعامة، مع التركيز على مشكلات اللغة العربية التى تحتاج إلى نظر خاص.

حاول المؤلف فى هذه المحاضرات رسم خطة مبدئية من شأنها الوفاء بهذا الغرض بصورة أو بأخرى. أشار فى البدء إلى ما ينبغى أن

يكون عليه المعلم من إمكانات تربوية وعلمية وثقافية. وأتبع ذلك بتوضيح كيفيات تقديم المادة والتعامل معها وفقا لقدرات المتعلمين ومستوياتهم الثقافية، مع مراعاة الاهتمام بالمهارات اللازمة لاكتساب اللغة، من سماع وحديث وقراءة وكتابة.

ووجه المؤلف اهتمامه فى كل ذلك إلى كيفيات التعامل مع الصعوبات الخاصة باللغة العربية، من أصوات وصرف وتراكيب، وذكر شيئا من هذه الصعوبات وحاول الإشارة إلى كيفيات التعامل معها. وختم كلامه الموجز هذا بإرشاد المعلم إلى تجنب الترجمة قدر الإمكان، والاستعاضة عنها بوسائل التوضيح المختلفة.

٢- من قضايا اللغة والأدب:

دأب قوم من غير العارفين على الزعم بأن ليس هناك صراع بين الفصحى والعامية، وإنما هناك فى نظرهم ما سموه لغة العرب المنطوقة المكتوبة ذات اللهجات المختلفة. نقول: ربما يكون هذا صحيحا لو نظرنا إلى الأمر نظرة عامة غير فاحصة. فاللهجات العامية موجودة، ولكن بينها وبين الفصحى فروق عميقة جوهرية، ويشيع استخدام هذه اللهجات فى التعامل اللغوى العام والخاص، بصورة تكاد تزحزح الفصحى من موقعها، وتحيلها أثرا بعد عين.

ودليل عمق الخلافات بين الجانبين ظاهرة للعيان، وقد غطت هذه الخلافات كل مستويات اللغة من ألفاظ وصيغ صرفية وأنماط التراكيب النحوية، ودلالات مكونات هذه المستويات جميعا. إن أصحاب هذا

الزعم يأملون فى الوصول إلى لغة وسيطة، أو إلى ما سماها بعضهم على ضرب من التندر "اللغة الخنثى". وزاد آخرون، وظنوا أنه من الممكن اتخاذ لغة "القاهرة" نموذجا لتشكيل لغة عامة تفى بحاجة العرب جميعا.

وبالمثل نلاحظ أصواتا زاعقة عالية، تدعى تخلف آدابنا وثقافتنا، ورميها بالجفاف والقصور، ولا ترشح نفسها للانتظام فى صفوف الآداب والثقافات العالمية. ويرى المؤلف أن هذا زعم تنقصه الحصافة ودقة النظر. فمن الثابت علميا أن لكل أمة ظروفها وأحوال معيشتها الخاصة التى تشكل آدابها وثقافتها، وليس من المستطاع القول بوجود آداب أو ثقافات عالمية وإنما هناك فروق واختلافات بين الأمم فى هذين الجانبين جميعا – وهذه الفروق والاختلافات لا تعنى تقدم قوم وتخلف آخرين.

وتساءل المؤلف: ما المعايير أو الأسس التى ينبنى عليها الحكم بالعامية فى الأدب والثقافة؟ إن الإجابة عن ذلك فيها عسر ومشقة، بل هى ضرب من المستحيل.

ومهما يكن الأمر، فالأولى بنا أن ننهض وأن نحاول جاهدين بالتفكير العميق فى ظروفنا العامة والخاصة، وأن نفتح نوافذ حياتنا هذه لتلقى ما يناسبنا من تيارات أدبية وثقافية وأجنبية لها طعوم ومذاقات تصقل وتهذب، ولا تهدم أو تشوه.

٣- اللغة العربية والحاسوب:

قدم هذا البحث إلى ندوة عقدت بالكويت سنة/١٩٨٩م، أيام

كانت سوق الحاسوب فى البلاد العربية، ما زالت متواضعة، تحاول أن تجد لنفسها من يوسع دائرتها ويعمق اتجاهاتها. ومن ثم كانت هذه الكلمة القصيرة التى قصد بها إلى بيان أهمية معالجة اللغة بهذا الجهاز توفيرا للوقت والجهد وتيسيرا على المتعاملين باللغة العربية، وبخاصة فى معاهد العلم وحاول المؤلف على استحياء أن يشير إلى شىء من كيفيات الإفادة من هذا الجهاز الخطير.

ولكنه فى الوقت نفسه حذر المتعاملين معه فى هذه الأغراض العلمية من الاعتماد عليه كاملا، إذ إن الحاسوب مايزال آلة صماء لا تعى ولا تفكر، ومن ثم لا مجال فيه للهواة أو التجار وأضرابهم من الناس الذين لا هم لهم إلا التسلية وكسب المال.

وقد لاحظ المؤلف أنه كانت هناك جهود من نوع ما فى هذا المجال فى بعض البلاد العربية، ولكنها جميعا كانت جهودا موزعة غير متكاملة، مادة ومنهجا وهدفا ومكانا أيضا. ومن هنا كانت دعوته التى ترمى إلى توحيد هذه الجهود فى صورة مركز علمى ذى طابع خاص منضبط محدود، وقدم مشروعا بذلك إلى جامعة القاهرة كما يتبين من السطور التالية:

٤ – مشروع مقدم إلى جامعة القاهرة بشأن إنشاء وحدة ذات طابع خاص باسم: اللغة العربية والحاسوب:

طرح المؤلف هذا المشروع على المسئولين بجامعة القاهرة عام ١٩٨٩، لتجميع الجهود العربية فى هذا المجال وتوحيد الرؤية والمنهج

والهدف. وحاول بيان أهميته للعرب والعربية، كما حاول رسم الخطوط الأساسية الكفيلة بالبدء فى هذا الأمل الكبير، ومن ثم يمكن أن يكون لنا – نحن العرب – نوع من الخصوصية أو الاستقلال فى العمل، حتى نأخذ لأنفسنا موقعا مناسبا فى مسيرة التقدم العالمى، ونضمن تأكيد هويتنا العلمية والثقافية. ونظر فى المشروع مرة ومرات، ولكن شيئا من ذلك لم يتم آنذاك.

٥- اللغة بين التطور وفكرة الصواب والخطأ:

معلوم أن اللغة (أية لغة) قابلة للتطور بمعنى التغير على جميع المستويات صوتية صرفية... إلخ. وقد وقع هذا فى جميع اللغات ومنها بالتأكيد اللغة العربية.

وقد يكثر التطور بمرور الزمن حتى يقف الناس أمامه فيختلفون فى صحته أو صوابه. ومن هنا كان لابد من وضع مجموعة من المعايير يبنى عليها الحكم بالصواب أو الخطأ.

وقد حاول المؤلف فى هذا البحث أن يقدم مجموعة من المعايير التى قدمها الدارسون وناقش كلا منها ثم أنهى الكلام باختيار معيار الشيوع والاستخدام العام مع عدم الخروج عن أساسيات اللغة وجوهرياتها فى قواعدها جميعا.

٦- اللغة والثقافة بين العوربة والعولمة:

قد يختلف الدارسون فى مفهوم "اللغة"، وأشار المؤلف فى هذا البحث إلى مفهومها العام الذى يعنى دورها العملى الواقعى فى المجتمع لمعين والذى يميز مجتمعنا من غيره ويعين خواصه ويحدد مواقعه فى دنيا البشر.

أما الثقافة فقد آثر المؤلف مفهومها العام المأخوذ به من عند جمع من الدارسين، وهو أن الثقافة فى هذا السياق بناء مركب من أنماط سلوكية يتمثل فى كيفيات تعامل المرء مع ربه ومع نفسه ومع ما ومن حوله في مجتمعه.

وأما "العوربة" فهو مصطلح حديث اعتمده المؤلف فى مقابل "العولمة" ويعنى به نمط الحياة العربية فكرية كانت أم سياسية أم ثقافية أم اقتصادية أم اجتماعية. أو قل، هو الانتماء إلى العروبة والالتفاف حول مبادئ العرب وتقاليدهم ومقومات هويتهم.

وأما "العولمة" فهى تعنى تعميم نمط من الأنماط الفكرية والسياسية والثقافية والاقتصادية على نطاق العالم كله – هذا هو المفهوم العام عند جمع من الناس، ولكنه يرى أن العولمة الآن ليست إلا "أمركة"، ترمى إلى سيطرة النموذج الأمريكى فى الحياة.

٧- الأدب ودوره فى التلاقى العربى وتأكيد الانتماء:

الأدب عند قوم هو الجميل من القول نثرا ونظما، أو هو كل ما أنتجه وينتجه العقل الإنسانى من ضروب المعرفة، ولقد توسع المؤلف فى مفهوم الأدب بحيث يشمل كل كلام جيد يحمل المبادئ والأفكار التى ترشد وتنصح وتثقف وتهذب، وفقا للبيئة المعينة التى يطرح فيها هذا الأدب، ومن ثم يدخل فى الأدب ما يسمى بالأدب الشعبى.

واقتصر المؤلف على دور الأدب العربى المنظوم باللغة العربية الفصيحة الصحيحة، وقد حاول أن يأتى بأمثلة تنبئ عن هذا الدور

فى التلاقى العربى وتأكيد الانتماء، وأشار فى ذلك إلى دور الأسـواق الأدبية فى القديم وبخاصة عكاظ والمربد، وأتى المؤلـف بأمثلـة منوعـة من هـذا القبيـل مـن الأدب فـى الـتراث العربـى فـى عمومـه وعـبر عصوره، ووقف بصفة خاصة على بعض الأدباء والشعراء مثل الجارم وآثار طه حسين والعقـاد... إلخ. وانتقـل المؤلـف بعـد ذلـك إلى دور الغناء للقصائد العربية ذات المعانى السامية فى هذا الشأن. وأشار فـى ذلك إلى ما قام به عبد الوهاب وأم كلثوم بأغنيـاتهم الخالـدة المسـتقاة من الوطن العربى بعامة.

٨- المصطلح اللغوى:

المصطلح يمثل مشكلة فى الفكـر العربـى حتـى وقتنـا هـذا، وقـد اقتصر عمل المؤلف فى هـذا البحـث علـى المصـطلح اللغـوى وأورد مفهوما له من وجهة نظره وحدد هـذا المفهـوم وشـروط تحققـه، ومـا ينبغى أن يكون عليه.

٩- علماء العربية وظاهرة الترادف:

يختلف الدارسون فى مفهـوم الـترادف، ويـرى المؤلـف أن لـيس هناك ترادف بالمعنى التام، فقد يقع الترادف نتيجة لاختلاف الزمان أو المكان. وقد أورد تعريفا دقيقا له مشيرا فى ذلك إلى آراء علماء العربية فى القديم حول هذا المفهوم.

وانتقل بعد إلى نقطة يثيرها الدارسون حول أهمية الترادف فى التعبير والأسلوب فقد تسيء كثرة الترادف فى الأسلوب إذا بولغ فى استخدامه لكنه ذو فائدة محققة أحيانا لأغراض التوضيح والتأكيد وحسن البيان.

١٠- العقاد فى الدراسات اللغوية:

ألقيت هذه الكلمة فى حفلت تأبين الفقيد بدار العلوم سنة ١٩٦٤م. ولم يكن قصد المؤلف إلقاء الضوء على جهود العقاد فى الدرس اللغوى، بقدر ما كان يحاول تقديم تحية لذلك العملاق فى صورة متواضعة للكشف عن جانب عز تعرفه أو إدراكه على غير العارفين من جوانب فكره الواسع العريض العميق.

ومن ثم فقد حاول المؤلف أن يرسم مجمل الخطوط الرئيسية التى يرجى لها أن تقف الباحث على بغيته من هذه الجواهر وتقييمها علميا- وهذه الخطوط ثلاثة: هى مستويات البحث ومجالات النظر اللغوى، ومناهج التعامل مع هذه المستويات والمجالات، والهدف العاجل والغايات الآجلة المعقودة على العمل فى مجمله.

(٦) اللغة العربية

بين الوهم وسوء الفهم

دار غريب - القاهرة، ١٩٩٩م

٣٤٠ صفحة، ١٧×٢٤سم

تدور أفكار هذا الكتاب حول قضية مصيرية، وأهم مقوم من مقومات حياتنا العربية فى القديم والحديث على سواء. وهذه القضية تتمثل فى حال اللغة اليوم وما أصابها من هزة تهددها بالانهيار والتمزق، أو إزاحتها عن مملكتها، وإحلال أنماط أخرى من الكلام محلها، تعتلى عرشها فى صلف وتبجح، أو يدفع بها دفعا إلى هذا العرش، بأيد غير واعية وسط جلجلة أصوات نافرة، زاعقة بأحقية هذه الأنماط من الكلام لاعتلاء هذا العرش والسيطرة على مقدرات الجماهير.

هذه هى حال "عربية العرب" الآن (الفصحى أو الفصيحة) وحال أهليها أو نفر غير قليل منهم إزاء هذا الصراع وتنازع المواقع لكل مستوى من مستويات الكلام.

ومن هنا تدور المناقشة فى صفحات هذا الكتاب فى موضوعية وحيدة.

الباب الأول: الواقع المعاصر للغة العربية وموقف الناس من هذا الواقع. وبه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الواقع المعاصر للغة العربية

قرر المؤلف فيه أن لغتنا القومية مضطربة اضطراب أهليها فكريا وعلميا وثقافيا واجتماعيا. فصحى أو فصيحة (لغة العرب) محشورة فى ركن ضيق من الساحة اللغوية، وعاميات ذات لهجات ورطانات تسيطر على الجو العام، أو خليط من هذا وذاك.

وزاد الأمر سوءا انصراف الناس عن فصحاهم، والميل إلى التغريب اللغوى، فى صورة عزلها عن بعض المواقع العلمية، واتساع دائرة اللغات الأجنبية ممثلة فى مدارس اللغات إلخ.

وكان طبيعيا أن يحار الناس إزاء الوضع المضطرب، فتفرقوا شيعا وأحزابا، لكل منها وجهة نظر (صائبة أو غير صائبة) تدعو إلى الأخذ بهذا المستوى أو ذاك، ولم ينته أى من الفرقاء إلى رأى حاسم أو خط واضح يخصلنا من هذا التلوث اللغوى.

الفصل الثانى: المشكلة اللغوية بين الوهم وسوء الفهم

حاول المؤلف فى هذا الفصل الكشف عن بعض الأوهام الداعية إلى الانصراف عن الفصحى (الفصيحة) والانحياز إلى العاميات، وتلك

التى تدعو إلى توزيع هذه اللغة توزيعا جغرافيا أو زمنيا. رأى قوم أن العربية الآن "عربيات" لا عربية واحدة. فهناك فى رأيهم العربية المصرية والعربية السعودية والعربية الشامية إلخ، وهناك أيضا عربية العصر الجاهلى وعربية صدر الإسلام وعربية العصر الأموى، حتى وصلوا إلى ما سموه "العربية المعاصرة". فكل من هذه العربيات صالح لبيئته أو كان صالحا لفترته الزمنية، وأدى دوره فى سياق زمنه. فليقنع كل قطر عربى بعربيته، ولنتمسك الآن – إن أردنا الإصلاح – بالعربية المعاصرة، فهى أوثق صلة بالناس وأوفى بحاجاتهم التعبيرية فى العصر الذى نعيش فيه.

وقد نسى هؤلاء أن هذا التوزيع الجغرافى وقبيله الزمنى، من شأنهما تمزيق العربية، وقطع أوصالها. وربما يؤدى الأخذ بهذا النهج أو ذاك (وهو وارد) إلى الوصول بنا إلى عاميات ورطانات تفرق الفكر العربى وتشتت وحدته، وتبقى المشكلة اللغوية على حالها، ونعيش فى حلقة مفرغة لا يدرى طرفاها.

ورأى فريق آخر اعتماد لغة المثقفين (هكذا قالوا) لغة عامة، إذ إنها تنتظم عناصر لغوية ترشحها للقبول من الجماهير العريضة. وقد فشلوا – بالطبع – فى تحديد مفهوم هذه اللغة وبيان خواصها التى تميزها من غيرها من المستويات. كما لم يوفق القائلون بأخذ اللغة

المكتوبة نموذجا للإصلاح اللغوى، ولم يدركوا أن اللغة لا تكتسب من المكتوب وحده، وإنما الأساس فى ذلك هو الاكتساب عن طريق الأداء النطقى الفعلى. اللغة اصطلاحا هى اللغة المنطوقة، فى حين أن اللغة المكتوبة ليست إلا مجرد تصوير للمنطوقة.

إن كل هذه المقترحات أوهام ناتجة عن سوء الفهم للمشكلات الحقيقية للعربية التى ينبغى النظر فيها والعمل على إزاحتها، حتى تبقى لنا لغة موحدة أو شبه موحدة، على غرار ما تفعله وتسلكه الأمم المتحضرة.

الفصل الثالث: اللغة بين الطبع والصنع

اختلف الدارسون فى حقيقة اللغة وطبيعتها: أهى عقلية، وظيفتها التعبير عن الأفكار أم هى ظاهرة اجتماعية وظيفتها التوصيل والتواصل. وقررنا أن للجانبين وجودا وأثرا، وأن اللغة تمر بدورة من مراحل ثلاث، هى الطاقة أو القدرة أو الخليقة، ثم تفعيل هذه الطاقة وقدرتها على الإنتاج وهذه هى السليقة، ثم الإنتاج نفسه، المتمثل فى المنطوق الحى. وهذا المنطوق أسبق، وأوفى نصيبا فى تشكيل اللغة وبنائها. فالإنسان يسمع، فتنطبع فى ذهنه آثار ما سمع، ويستطيع بعد التوليد من هذا المخزون، فيخرج وفقا لهذا المخزون. إن كان المخزون فصيحا، كان المولد كذلك، وإن كان عاميا، جاء المنطوق على مثاله.

ومن هنا كان لابد لنا – إن أردنا الإصلاح – أن نركز على المنطوق. ومعناه أن اللغة فى جملتها من صنع الإنسان، وتعتمد فى ذلك على منهجه وسلوكه فى هذا الصنع. وبعبارة أخرى، اللغة تكتسب عن طريق الممارسة والخبرة، بمعونة الطاقة أو القدرة التى يتم تفعيلها دائما وأبدا. وفقا لخواص هذا المكتسب وطبيعته، وهكذا دواليك طوال فترة الاكتساب التى قد تطول أو تقصر، فالطفل يسمع ويلاحظ ويخزن، ثم يحاول بنفسه، ولكنه فى كل الحالات فى حاجة إلى وسط لغوى يأخذ منه ويسير على دربه. ومن ثم كانت القدوة أهم عامل من عوامل صنع اللغة واكتسابها، فكيفما يكن المسموع يكن الإنتاج، أى المحصول اللغوى للطفل (وغيره).

الباب الثاني: من مشكلات اللغة العربية. وبه فصلان:

الفصل الأول: مشكلات قديمة

وبه مبحثان:

المبحث الأول: تقعيد اللغة ومناهجه

برع العرب القدامى فى تقعيد لغتهم وضبط أحكامها، وصولا إلى بنية صالحة للأخذ بها والسير على مثالها. واعتمدوا فى الأساس على المنهج المعيارى، ولكنهم فى وسط الطريق كانوا يلجئون إلى مناهج

فرعية أخرى، لصعوبة تطبيق هذا المنهج فى كل الأحوال. عادوا إلى النظر المنطقى والفلسفى، وإلى التأويل والافتراض إلخ. ومن ثم وقع شيء من الاضطراب فى نتائجهم التى استقرت حتى اليوم.

هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الأجداد قصروا التقعيد على فترة زمنية محددة، الأمر الذى فوت عليهم (وعلينا) أن ينظروا فيما جد فى العربية من مظاهر التطور والتجديد فى أثوابها المتغيرة، وفقا لمتغيرات الحياة وظروفها.

كانت النتيجة ظهور بعض الصعوبات فى استيعاب قواعد العربية، كما رسمها لنا هؤلاء الأجداد. فانطلقت بعض الأصوات حديثا تنادى بتيسير هذه القواعد أو تهذيبها وصقلها، وركزوا على جانب واحد من جوانب هذه القواعد، وهو النحو، وهو مسلك مخلص من حيث المبدأ. ولكن أصحاب هذه الحركة الإصلاحية لم يدركوا أن قواعد النحو إن هى إلا جانب (وهو جانب مهم) من جوانب قواعد اللغة بمعناها الدقيق. هذا بالإضافة إلى أن إصلاحهم لقواعد النحو جاء مشوبا بشيء من القصور وعدم الرؤية الصحيحة لخطوط الإصلاح الحقيقى لهذا الجانب من جوانب اللغة.

ومن ثم حاول المؤلف تقديم منهج يرجى أن يكون بداية الانطلاق إلى وضع قواعد اللغة فى صورة متكاملة، تأخذ فى الحسبان

كل ضوابط المستويات اللغوية، صوتية كانت أم صرفية ونحوية ودلالية، بلا فرق. واقترح المؤلف منهجا علميا يفى بحاجة هذا التقعيد الجديد، هو المنهج البنوى الوصفى.

المبحث الثانى: نظام الكتابة العربية

لا يشك أحد فى أن نظام الكتابة العربية خير نظام لهذه اللغة، إذ هو يفى بحاجتها إلى حد ظاهر، ويفوق غيره من النظم الكتابية للغات كثيرة.

وبين المؤلف أن هذا النظام لا يخلو من قصور وهنوات، تنعكس على اللغة، وتفسد ترجمتها نطقيا فى حالات كثيرة. من أهم نواحى القصور فى هذا النظام عدم وضع رموز الحركات القصار فى بنية الكلمة، إذ اكتفى بوضعها فوق الحرف أو تحته، الأمر الذى يؤدى إلى الخلط بينها أو إلى إهمالها، وتكون النتيجة الوقوع فى الخطأ واللحن، على ما هو معروف.

حاول الدارسون حديثا إصلاح هذا النظام، وقدموا لنا مقترحات عديدة. من أهمها ما اقترح من اتباع رموز الكتابة اللاتينية، والأخذ بها فى ضبط الكتابة العربية، وقد بين المؤلف وهم هذا الاقتراح.

وانتهى المؤلف إلى أن نظام الكتابة العربية – على الرغم مما ينتظمه من قصور – لا يعدله أى نظام آخر، مقارنة بنظم الكتابة فى لغات كثيرة، كالفرنسية والإنجليزية مثلا.

ويقع فى أربعة مباحث:

المبحث الأول: النظرة الاجتماعية والنزعة إلى التغريب

انصرفت الجماهير العربية العريضة عن لغتهم، وقنعوا بما ألفوه من عاميات ذات لهجات ورطانات مختلفة، وأصبح هذا الانصراف عادة لهم، ولم يفكروا فى مشكلات هذه اللغة أو محاولة العودة إليها حفاظا عليها، وتأكيدا لوحدتهم.

هذا السلوك اللغوى المضطرب يوحى – للعارفين وغير العارفين– بأن القوم فى مجملهم لم يقدروا للغتهم قدرها، ولم يعدلوا فى موقفهم منها، كما يوحى هذا السلوك أيضا – وهو وارد وله شواهد كثيرة – بنظرة العرب إلى العربية "نظرة دونية" فى سلم التواصل اللغوى. وهذه نظرة اجتماعية غير مقبولة تصيب اللغة وأهليها فى الصميم.

المبحث الثانى: سيطرة العاميات

أشار المؤلف فى هذا المبحث إلى أن العاميات بلهجاتها الكثيرة المختلفة من بلد عربى إلى آخر قد سيطرت على السوق اللغوية العربية. وهو وضع يهدد الفصحى الفصيحة بالخطر. فكان لا مناص من النظر فى الأمر، لمعالجة هذا الوضع غير المقبول.

برزت إلى الوجود أربعة اتجاهات، لا تلتقى فيما بينها فى قليل أو كثير.

الاتجاه الأول: يميل أصحابه إلى فكرة مغلوطة، تفصح عن نفسها بالقول بأن من طبيعة اللغة التنوع والتوزيع إلى عاميات. وأن هذه العاميات تقوم بدورها فى التواصل والتوصيل. والاتجاه الثانى: ينادى به جمع من المخلصين الذين يرون ألا مناص لنا إلا التمسك بالفصحى، كما ورثناها عن الأجداد، والعمل على نشرها والأخذ بها دائما وأبدا. أما الاتجاه الثالث فقد رأى أهلوه التوسط فى الأمر. ونادوا بما سموه اللغة الثالثة التى تنتظم عناصر من الفصيح وأخرى من العاميات، وتفرع عن هذا الاتجاه نداء يرى أن المسألة سهلة ميسورة: يمكن اعتماد لغة المثقفين لغة عامة، تفى بحاجة القوم أجمعين. أما الاتجاه الرابع فهو أخطرها وأبعدها أثرا على "العربية" وأهل العربية على سواء: ظهرت دعوة قديمة حديثة تدعو إلى الأخذ بالعاميات، ونبذ الفصحى نهائيا، لأنها لم تعد ذات غناء فى التوصيل والتواصل لجماهير الشعب العربى، وترخص بعضهم قليلا، فرأى إمكانية اعتماد الفصحى لغة كتابة، والعاميات وسيلة التعامل اللغوى العام.

وفى هذا الإطار الداعى إلى العاميات، ظهرت محاولتان لتسويغ وقبول العاميات أو أمثلة منها. المحاولة الأولى (وهى محلية مصرية)

تجهد نفسها فى إثبات صلاحية العامية المصرية للتعامل اللغوى، إذ هى لصيقة بوجدان القوم وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم.

وتسلك المحاولة الثانية مسلكا غير دقيق لتسويغ صلاحية العاميات أو ما يشبهها. يرى الطارحون لهذه المحاولة أن "الفصاحة" ليست مقصورة على مستوى لغوى دون آخر، أو فترة زمنية دون أخرى. الفصاحة فصاحات: العربية فصيحة فى كل عصورها وبيئاتها، وامتدت الفصاحة هذه إلى مستوياتها الأخرى المولدة منها، فى صورة لغة الكتابة وصورة العامية كذلك، وهذا فى الحق توظيف خاطئ للمصطلح "فصاحة".

وهكذا اتضح لنا الخلط فى الرؤية والتجاوز فى الاتجاه نحو علاج المشكلة اللغوية العربية.

المبحث الثالث: العربية فى دور التعليم

العربية فى دور التعليم فى وضع يدعو إلى القلق بل الانزعاج. فالجو اللغوى العام هناك مايزال مشحونا بأخلاط الكلام ونوافره: من عاميات ورطانات فى الأفنية والفصول والمدرجات أحيانا، مع توظيف قليل للعربية الفصيحة، وهو – للأسف – توظيف مغلوط فى أحيان غير قليلة. والعربية بفروعها المتعددة محسوبة مادة واحدة، منقوصة القدر والاهتمام كما وكيفا، من حيث وجوب النظر إلى

فروعها الكثيرة، والأوقات المخصصة لها والدرجات المرصودة لها فى الامتحان. وفى كثير من الأحيان تقدم مادتها بأسلوب عربى معوج، مشحون بالعاميات وما إليها، ويعتمد على "التلقين" فى التعامل معها.

أما مهارات اكتساب اللغة وتعليمها فهى غائبة تقريبا. فالاستماع إلى عربى فصيح صحيح نادر، والقراءة الجهرية لها وجود لا يذكر، إذا قيس بأهميتها بوصفها سيدة المقررات فى اللغة. وغياب هاتين المهارتين يستتبع – بالضرورة – ضعفا ملحوظا فى تفعيل المهارتين الأخريين، الكتابة والحديث.

هذا الوضع غير المقبول ينطبق بحذافيره على وضع العربية فى الجامعة وكلياتها المتخصصة.

ثم يقدم المؤلف رؤيته لعلاج هذه المشكلة.

المبحث الرابع: اللغة العربية لغير العرب

فى البدء كانت العربية تحظى باهتمام جملة من المفكرين المستشرقين حيث تناولوها بالدراسة والتحليل لتعرف أسرارها وخواصها المميزة لها بوجه علمى أكاديمى، ولما تقدم الزمن زاد الاهتمام بهذه اللغة من قبل الجماهير العريضة فى الشرق والغرب، لا لدراستها وتحليل مشكلاتها وإنما لتعلمها واكتسابها وسيلة من وسائل

الاتصال بأصحابها للكشف عن معارف العرب وثقافتهم وحضارتهم.

وكان الإقبال شديدا فى الخارج والخارج على تعلم هذه اللغة غير أن هؤلاء الراغبين فى هذا التعلم صدموا فى السنوات الأخيرة بأن العربية أصبحت ذات مستويات مختلفة: الفصحى أو الفصيحة، العاميات بلهجاتها وخليط من هذا وذاك، فوقفوا فى حيرة من أمرهم، والمفروض أن يجدوا مادة عربية تلبى رغباتهم المختلفة.

هناك جهود قدمت لمحاولة الوفاء برغبات هؤلاء ولكنها فى الأغلب محاولات فردية أو قطرية ينقصها الضبط وتحديد المنهج وتعيين المادة بصورة كافية.

والمفروض أن يحاول العرب القيام بإعداد خطة لتعليم العربية تفى بحاجات الراغبين فى تعلمها آخذين الفصحى أو الفصيحة أساسا للعمل مع مراعاة حاجات الطوائف المختلفة بصورة أو بأخرى.

وفى كل الحالات ينبغى عند وضع الخطة أن تراعى أمورا مهمة منها تحديد مستوى المادة التى تقدم، مراعاة اختلاف الدارسين ثقافيا وجغرافيا، مراعاة التدرج فى تقديم المادة من القديم إلى الحديث، ونوصى أيضا بمراعاة اختلاف الدارسين فى أعمارهم.

وعند تقديم المادة لهؤلاء الدارسين ينبغى أن يقوم بها معلمون أكفاء ذوو دربة ودراية بتعليم اللغة لغير أهلها آخذين فى الحسبان المهارات الأربع فى تعلم أية لغة وهى الاستماع والقراءة والكتابة والحديث فهذه مهارات متصل بعضها ببعض، ولا ينبغى الفصل بينها بحال، ومن الحتم مراعاتها فى كل درس.

وجاءت خاتمة الكتاب فى صفحات قليلة لتشير إلى أهم المشكلات التى عولجت فى الكتاب، وإلى طرائق التخلص منها مع توجيه النصح والإرشاد لكل المتعاملين باللغة العربية.

(٧) خاطرات مؤتلفات فى اللغة والثقافة

دار غريب – القاهرة، ١٩٩٥م
٣٢٤ صفحة، ١٧×٢٤سم

هذه البحوث فى جملتها تدور حول "اللغة والثقافة"، وهما من أهم خواص الإنسان.

وليس بمنكور أن هناك علاقة وثيقة ونسبا قريبا بين اللغة والثقافة، فالثقافة إطار أعم واللغة عنصر أخص، كل يعطى ويأخذ، وإن بدرجات متفاوتة، وكل يؤثر ويتأثر بالآخر، قوة وضعفا، وحيوية وجمودا. وهما معا ترجمات واقعية للفكر، ومرايا عاكسة لطبيعته وقدراته ومفصحات عن مكنوناته وتوجهاته. فالعلاقة بين ثلاثة الأطراف علاقة عضوية، والبحث فيها بحث فى الإنسان، والإنسان هو قطب الرحى فى هذه الحياة، وعمادها الذى تنبنى عليه والذى يسير أمورها ويدبر شئونها.

وينتظم الكتاب سبعة مباحث:

(١) اللغة: مفهومها والحوار معها بالنظر العام والخاص:

حاول المؤلف فى هذا المبحث أن يكشف عن طبيعة هذه المنحة الربانية (اللغة) وأن يميط اللثام عن أسرارها، ونظرة الناس إليها، عامتهم وخاصتهم على سواء، كما أشرنا إلى موقف الأديان منها.

وعرض المؤلف آراء الدارسين المختصين من لغويين وعلماء الاجتماع وغيرهم فى مفهوم اللغة ووظائفها، وعناصرها المكونة لها، ومناهج الدرس التى اتبعهاكل فريق فى تحليل هذه العناصر، مشيرا فى هذا السياق إلى أن اهتمامهم الأول منصب على اللغة المنطوقة، إذ اللغة المكتوبة لها طبيعتها الخاصة التى لا تعدو أن تكون تسجيلا للغة المنطوقة. وهذا التسجيل فى معظم حالاته لا يمثل المنطوق تمثيلا دقيقا، بالإضافة إلى حرمانه من خواص أدائية تنفرد بها اللغة المنطوقة، ونعنى بذلك المميزات الصوتية النطقية التى تكسو الأداء الفعلى للكلام.

وعرض فى النهاية إلى بعض المسائل الفرعية التى تناولها بعض اللغويين (وغيرهم)، كالكلام على تنوع اللغة إلى لهجات وأنماط من الكلام مختلفة، والكلام على أصل اللغة الإنسانية ونشأتها، وبيَّن أنه موضوع قديم حديث، يتناوله الدارسون أحيانا على ضرب من الطرافة من وقت إلى آخر، على الرغم من عدم وصولهم فى هذا الشأن إلى حقائق علمية يمكن الأخذ بها أو الاعتماد عليها. وختم

حديثه هناك بالإشارة إلى ما يراه بعضهم (ويتفق المؤلف مع وجهة النظر هذه) من أن وحدة اللغة المعينة لها شأن كبير فى وحدة الأمة سياسيا وثقافيا واجتماعيا.

(٢) فى مفهوم الثقافة:

قام المؤلف بتحديد مفهوم المصطلح "ثقافة"، وبين أن له مفهوما عاما فى التراث العربى، يلتقى فى بعض وجوهه مع المفهوم الفنى الدقيق الذى يروى أنه حل بنادينا العربى من أوربا فى العصر الحديث، بحكم التثاقف بين القبيلين، وتأكد بالنظر الدقيق أن المفهوم العربى لهذا المصطلح فى عموم معناه كان أسبق تاريخا مما يناظره من مفهومات أوربية. وانتهي المؤلف إلى أن هذا المصطلح – صيغة ودلالة فنية – له أصول عربية، وإن كان الفكر الغربى له فضل بلورته وتعيين حدوده وتخصيص دلالته على الوجه العلمى الشائع هنا وهناك.

وتابع المؤلف الحديث بالإشارة إلى أن هذا المصطلح – على الرغم من شيوعه وكثرة توظيفه – مازال مختلفا فى تحديد مفهومه اختلافا واسعا.

وحاول المؤلف أن يميز بين ما سماه النظرة المثالية للثقافة ومفهومها، وما نعته بالنظرة الواقعية، أى تلك التى تحاول رصد أنماط السلوك والتعامل مع النفس ومع الكون فى مجمله، مشيرا إلى أن

سلوك الفرد قد يتفق أو لا يتفق مع المخزون فى ذهنه من قيم ومبادئ وأخلاقيات.

وتحدث عن أهم مكونات الثقافة وبعض سماتها، كخاصتها التراكمية والجماعية وقبولها للتغير من وقت إلى آخر، وإلى تنوع أنماطها من بيئة إلى أخرى.

وأشار إلى أهمية التكامل فى البنية الثقافية فى المجتمع المعين، وإلى خطورة انهيار هذه البنية أو عدم الانسجام والتوائم بين عناصرها، حيث إن هذا الانهيار أو ذاك التفكك والنشاز يؤدى حتما إلى تفريق الكلمة والتصارع فى الاتجاهات، الأمر الذى من شأنه أن يصيب الوحدة الوطنية أو القومية فى مقتل.

(٣) الثقافة والفكر:

انصب الكلام فى هذا المبحث على بيان العلاقة بين الثقافة والفكر، ومدى التفاعل بينهما قوة وضعفا، وتأثيرا وتأثرا. وبين المؤلف أن تكامل الثقافة وانسجام عناصرها يؤدى إلى وحدة الفكر وتكامله، الأمر الذى يعنى– حتما – الانسجام والتوافق فى الاتجاهات والرؤى فى المجتمع المعين.

وحاول هنا أخذ الثقافة بمفهومها الواقعى الحى المتمثل فى أنماط السلوك وسبل التعامل مع الحياة. وتناول الفكر بوصفه طاقة من

الطاقات العليا للإنسان التى لا يختص بها قبيل دون آخر من الأجناس البشرية. ومن ثم حاول أن يدحض فكرة "الفوقية" لجنس من الناس و"الدونية" لجنس آخر فى هذه الطاقة بحكم الخلقة والطبيعة. ربما تكون هناك فروق بين الناس، ولكنها فروق فردية، وليست فروقا بين الأجناس، وأيد المؤلف رأيه هذا بوقائع التاريخ وأحداثه.

وأشار المؤلف فى هذا المبحث كذلك إلى ما تعرضت له بنيتنا الثقافية فى العقود الأخيرة من هذا القرن من نشاز وعدم توافق بين لبناتها، بسبب ما داخلها من عناصر غريبة غير ملائمة – شكلا ومضمونا – لمادة بنيتنا الأساسية. فكان ما كان من ظهور توجهات فكرية متضاربة بل متناقضة تهدد وحدتنا الفكرية، وتنعكس على سلوكنا فتحيله سلوكا يعوزه الرشد وتفقده الأصالة والمصداقية، قولا وعملا. يتمثل هذا فى الآونة الأخيرة فى بعض أنماط السلوك التى من شأنها أن تصيب المجتمع كله فى مقتل، تؤدى – إن عاجلا أو آجلا – إلى زعزعة البناء وحرمان أهله من الأمان والاستقرار وإلى عزلهم عن مسيرة التقدم والإسهام فى صنع الحضارة وبناء المستقبل.

وانتهي المؤلف من هذا المبحث إلى توجيه دعوة إلى المسئولين وأولى الرأى منا للعمل على رسم خطة واضحة الحدود والمعالم، تمكننا من النظر العلمى الصادق فى بنيتنا الثقافية ومحاولة هندستها من جديد، حتى نظفر باستقرار فكرى متوائم الاتجاهات متناسق الجنبات.

أشار المؤلف فى بداية الحديث إلى أن اللغة العربية كانت تزاحمها فى معاقلها اللغتان الانجليزية والفرنسية، حيث كانتا مسيطرتين على التعليم الجامعى، بكلياته المختلفة نظرية وعملية. ثم كتب لهاتين اللغتين أن تنزاحا من معظم مواقعهما وتعود العربية إلى موقعها الطبيعى، ومستقرها الأصيل. وواكب هذه السيطرة إنشاء المدارس الأجنبية وفاء بحاجات الجاليات الوافدة إلى بلادنا لأسباب مختلفة، وهو أمر معقول ومقبول من حيث المبدأ. ولكن الذى حدث – ومازال يحدث – أن فئات معينة من مواطنينا تزاحموا على هذه المدارس، لظنهم فوقيتها وامتيازها شكلا وموضوعا. وما إن خف الازدحام عليها نسبيا فى أوائل الخمسينيات والستينيات، حتى ظهرت بدعة ما سمى بمدارس اللغات التى تنتشر الآن فى طول البلاد وعرضها، حضرها وريفها على سواء، على حين ضاق الخناق على اللغة العربية.

أدى – ومايزال يؤدى – هذا الوضع الغريب إلى انشطار البنية الثقافية وحرمانها من الانسجام والتكامل: فهناك ثقافة أجنبية وهنا – فى مدارس الشعب – ثقافة قومية، وقلما تلتقيان أو تتواءمان. وهذا ضرب من التغريب ظهرت آثاره فى كل مجالات الحياة .

إنه وضع غريب عجيب، وسلوك ناشز نافر، ودليل واضح على

اختلاف الرؤى والاتجاهات التى تقود إلى "التلوث" اللغوى والثقافى، ومردود ذلك كله زعزعة البناء وتقويض فكرة الانتماء.

(٥) المتغيرات الإعلامية وانعكاساتها على الثقافة:

"الإعلام" بمفهومه الضيق مصطلح ذو سمعة سيئة فى العالم الثالث. ذلك أنه فى هذه البلاد إعلام موجه (بفتح الجيم وكسرها) فى أغلب حالاته. ولهذا آثر المؤلف تفسيره بمفهوم أوسع وأشمل، وهو "التوصيل" أو أجهزته المنوعة. والكلمة هى أداة التوصيل منطوقة أو مكتوبة.

والإعلام بهذا المعنى المفروض فيه أن يوظف فى ثلاث وظائف، وهى "الإعلام" بمعنى مجرد الإخبار أو نقل الحقيقة والإفصاح عن الواقع، والتثقيف والترفيه.

من هذا المنطلق، حاول المؤلف فى هذا المبحث الكشف عن دور وسائل "إعلامنا" فى القيام بهذه الوظائف، بالتركيز على الراديو والتليفزيون والصحافة.

وأنهي المؤلف كلامه بالتنبيه إلى ضرورة قيام أجهزتنا الإعلامية بدور أكثر فعالية وأعمق توصيلا وأوسعه. ذلك أن عصرنا الذى نعيش فيه يعج بمتغيرات إعلامية متطورة شكلا ومضمونا، الأمر الذى يقتضى يقظة وبعد نظر. أغرقت التكنولوجيا الحديثة سوق الإعلام بأجهزة ووسائل "اتصالية" عالية الكفاية فى الانتشار والتأثير. فهناك الأقمار الصناعية والقنوات

الفضائية والفيديو. وكلها تبث أو تصدر مواد يصنعها أصحابها لأغراض شتى وأهداف متباينة، وإن كانت جميعا تتسم بالجاذبية والإغراء، وبعضها صالح متقبل وبعض آخر تشوبه ألوان من الفكر أو الرؤى والاتجاهات التى لاتوائم أو تقابل حاجتنا الثقافية. ويرى الحريصون على بنيتنا الثقافية وما تنتظمه من قيم وأعراف وتقاليد وجوب الأخذ بسبيلين متصلين لمواجهة هذا الموقف. السبيل الأولى تنشيط أجهزتنا الإعلامية، بحيث تنتظم موادها الثقافية ما من شأنه أن يخفف من شدة هذه الجاذبية وذاك الإغراء، والسبيل الثانية تتمثل فى محاولة ضبط التلقى عن هذه الأجهزة والوسائل. ولكن كيف يتم هذا الضبط، وما حدوده، ومن المسئول عنه؟ كلها تساؤلا تحتاج إلى موقف محدد من المسئولين وأصحاب القرار.

(٦) بين الثقافة والاقتصاد:

حاول المؤلف فى البدء تقديم مفهومات واضحة للمصطلحين "ثقافة" و"اقتصاد". وركز على بيان ما بينهما من علاقة سلبا وإيجابا. فالاقتصاد فى عموم معناه "بنية" قوامها العمل والإنتاج والتعامل مع أدوات هذا الإنتاج بطريق سليم راشد، وتوظيف مردوده توظيفا عادلا متوازنا مع ظروف المجتمع، وحاجاته الحاضرة والمستقبلة.

ثم حاول الكشف عن واقع هذه "البنية" فى مجالات الحياة المختلفة فى بلادنا. فدرج فى البداية إلى أهم مواقع الإنتاج المتمثلة فى الزراعة والصناعة، وما يرتبط بهما من تجارة وتسويق وتوظيف لموادهما.

ثم تحدث المؤلف عن الحلقة الواصلة بين الإنتاج الزراعى والصناعى وتوزيعه فى دنيا الناس فى الداخل والخارج، ويعنى بذلك التجارة والتسويق. وهنا يرى المؤلف – فى هذه الأيام – أمرا عجبا وخلطا واضطرابا. تجار ضربوا بثقافة الأجداد عرض الحائط، وانتهوا نهجا متجاوزا أهداف تحريك المال وتنشيط الإنتاج لصالح الاقتصاد القومى وخدمة المجتمع. تنافسوا فى جمع المال وتحصيله بالمغالاة فى الأسعار والغش والخداع والاتجار فى المشروع وغير المشروع، غير مبالين بما يصيب أهليهم واقتصاد بلدهم من آثار مدمرة فى الحال أو المآل.

أما التسويق، ويعنى به التسويق الخارجى بالذات، أى التصدير، فلا نسمع عنه إلا فى أخبار الصحافة، وهى – مع ذلك – أخبار تنذر ولا تبشر، وتنعى ولا تهنئ. تقرع آذانك صيحات العامة والخاصة، هاتفة بأهمية التصدير ودوره فى الازدهار الاقتصادى، ولكن ما إن تكف الحناجر عن إطلاق الشعارات، حتى لا تلمس شيئا عمليا ذا بال: اضطراب فى القانون وتعقيدات فى لوائح التنفيذ، وتضارب بين الأقوال والأفعال. وإن زحزح شىء من إنتاجنا نحو التسويق الخارجى عاقت قبوله أو وصوله إلى الطرف الآخر عقبات وصعوبات ترده خاسئا إلى أهليه، إما لعدم انتظام التوقيت وإما لرداءة البضاعة أو فسادها فى الطريق.

وزيادة فى إيضاح أهمية العلاقة بين الثقافة والاقتصاد، درج المؤلف إلى مجالات ومواقع أخرى للكشف عن واقع هذه "البينية" وما يجرى لها ويلفها من اضطراب وفوضى.

وينصرف الكلام بعد إلى وزارة الثقافة بوجه خاص. ذلك أنها قطب الرحى فى العملية التثقيفية. إنها تحاول ولكن محاولاتها مازالت قاصرة عن أداء دورها المبتغى المأمول. إنها تعنى - أحيانا - بالشكليات والمظهريات المتمثلة فى اللقاءات الاجتماعية والمهرجانات والحفلات الأنيقة فى مظهرها الخاوية من المضامين التثقيفية التى تتربع على قمة مسئولياتها.

وتأتى الكتب الثقافية التى تتولى أمرها هذه الوزارة، فلا تجد لها سوقا رائجة فى الداخل أو الخارج، إما لعدم وفائها بحاجة المواطنين كافة، وإما لضعف موادها والقصور الواضح فى "فنية" استغلالها اقتصاديا بطرحها فى الأسواق المجاورة وغير المجاورة. وبتطبيق الأمر فى ذلك تماما على الأفلام والمسرحيات وغيرها من الأعمال الفنية التى كانت تحظى قبل بأكبر قدر من الانتشار واحتلال المواقع الثقافية هنا وهناك.

وختم المؤلف بحثه هذا بمقولته الموجزة: كيفما تكن البنية الثقافية تكن البنية الاقتصادية.

(٧) التراث ودوره فى تنمية الإبداع الأدبى

أشار المؤلف فى هذا المبحث إلى أن "التراث" مصطلحا قد أُسىء

فهمه، وأخذه كما لو كان شيئا متحجرا، أو أشبه بأكفان الموتى، خاصا بزمانه ومكانه. وردَّ على هذا الزعم بأن "التراث" إن هو إلا موروث الأمة، وهو نقطة البداية فى حلقات حياتها، وهى حلقات متصلات غير منفصلات، فما سمى الحاضر حاضرا إلا بنسبته إلى ماضيه. قد يكون التراث أو الموروث قديما زمنا، ولكنه قابل للتجديد والإفادة منه بالحوار معه، وتقديمه صورة راشدة متنورة.

وقرر أن التراث بصنوفه وألوانه كافة ذو أهمية بالغة فى تعميق خبرة الإنسان واتساع معارفه، وتنوع اتجاهاته. والإبداع – فوق أنه طاقة أو طبع – فى حاجة ماسة إلى "الصنع" أى الاكتساب بوسائله المختلفة قديمها وحديثها على سواء.

والاكتساب ليس مقصورا على الأخذ من الحاضر وحده، بل لابد له من العود إلى القديم (التراث أو الموروث) للامتياح منه والأخذ من ثماره قدر الإمكان وحسب الحال.

وتراثنا الأدبى بالذات مورد غنى، يدركه من حاول النظر فيه والكشف عن عمقه وأصالته. وما أكثر الأدباء الذين نهلوا من هذا المورد، وأخذوا منه بنصيب، فكانت أعمالهم قمة فى الإبداع وغزارة المحصول. ولكن يبدو أن جملة من شباب الأدباء كفوا عن هذه السبيل وجعلوا بينهم وبين موروثاتنا الأدبية حاجزا، وانقطعوا عنها، إما جهلا

بقدرها، وإما عجزا عن ملاحقتها أو استيعابها، لغرابة التجارب أحيانا (وهذا طبيعى) وإما ضعفا فى اللغة، وهذا مؤكد.

وانتهي المؤلف من ذلك بتقديم النصح لهذا الفريق من الأدباء، بأن يحاولوا ولو بالتدريج عقد صداقة بينهم وبين هذا الميراث الأدبى الضخم. وقدم لهم أمثلة متنوعة من أعمال بعض الشعراء فى القديم، ليروا ما فى هذا التراث من خاصة التجديد والحوار المستمر. وقرر المؤلف أن الفصل بين القديم والحديث أو الأخذ بالحداثة أو المعاصرة دون العود إلى الأصالة أو القديم فيه تنكر لماضى الأمة وفصل لحلقات الحياة بعضها عن بعض، فنكون كمن قالوا فيه قديما "إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى".

(٨) فن الكلام

دار غريب – القاهرة، ٢٠٠٣م
٤٦٤ صفحة، ١٧×٢٤سم

أساس العمل فى هذا الكتاب ينحصر فى بيان السبل والعوامل التى تمكن المتكلم السوى المبرأ من هذه العيوب ونحوها من استغلال مخزونه اللغوى وأدائه على وجه مقبول مبنى ومعنى، أى من حيث التأليف والصوغ والترجمة الصوتية، حتى يؤدى هذا الكلام غرضه ويحظى بارتياح السامعين، ويطابق موقعه ومقامه الاجتماعى.

يقع هذا الكتاب فى ثلاثة أبواب.

الباب الأول: اللغة والإنسان. ويقع فى فصلين. الفصل الأول: التأثير المتبادل بين اللغة والمجتمع، وبه مبحثان:

المبحث الأول: دور اللغة فى المجتمع

يعنى هذا المبحث بتأكيد أن بين اللغة والإنسان تلازما وتأثيرا وتبادلا، كل يمنح ويمنح، وبقدر ما يكون الأخذ والعطاء من الجانبين يكون حال كل منهما من حيث التوافق والتلاؤم، والقوة والضعف، والازدهار والتخلف.

واللغة بهذا الموقع لها دورها المتفرد فى حياة المجتمع، فهى أداة الوصل والربط بين أفراد هذا المجتمع، وهى وسيلة تسيير الأمور وتدبير شئون الدنيا.

وقد اختلف الدارسون فى بيان المقصود بهذا التواصل وذاك الربط وفقا لمنهج كل فريق فى النظر إلى حقيقة اللغة.

المبحث الثانى: اكتساب اللغة

لايكتسب الانسان لغته من فراغ بل لابد له من ا لعيش فى مجتمع لغوى يتبادل معه الأخذ والعطاء، عن طريق السماع والإسماع. يسمع الإنسان - قصدا أو عفوا - من الجو الذى يلفه ويتكرر السماع، فتنطبع آثار المسموع فى الذهن، وتصبح مؤهلة للتوليد منها، وإنما يكون ذلك بتفعيل جهاز النطق، فيتكلم على منوال ما سمع، بصورة أو بأخرى، حتى يمرن لسانه ويصبح بالتدريج على كفاية ملحوظة فى التوليد من مخزونه وأدائه نطقا على وفق ما يجرى فى مجتمعه الصغير أو الكبير على حد سواء.

العامل الأساسى فى اكتساب اللغة عندنا يعتمد على مبدأ مهم أوجزه المؤلف فى عبارته الشهيرة "اسمع وأسمع".

الفصل الثاني: الأداء اللغوى (أو تأليف الكلام)، وبه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الصحة الداخلية

ويعنى المؤلف بالصحة الداخلية للكلام أن يكون سليما صحيحا فى بنائه وهندسته، ولا يكون ذلك بالطبع إلا إذا كانت لبناته وعناصره المكونة له ملائمة لهيئته وتركيبه، حتى يأتى البناء كله وافيا بغرضه ومقاصده.

ومعنى هذا بعبارة أخرى: أن الصحة الداخلية للكلام (جملة أو عبارة أو فقرة إلخ) لاتتم إلا بسبيلين متصلين غير منفصلين. الأولى تتمثل فى صحة اللبنات أو المفردات صوتيا وصرفيا ومعجميا.

أما السبيل الثانية للصحة الداخلية للكلام فيعنى المؤلف بها الإتيان بهذا الكلام على وجهه السليم المقبول من تأليف ونظم، بحيث تراعى فيه قواعد هذا التأليف من موقعية لعناصره وربط بينها، وإعراب (فى اللغات المعربة)، حتى يتم البناء فى صورة متسقة، متآلفة المكونات واللبنات. فإذا ما تحققت هذه السبيل (مضمومة إلى السبيل الأولى) كان الكلام مرشحا للقبول، والوفاء بأغراضه ومعانيه العامة. أو بعبارة أخرى، صار الكلام فصيحا، أى سليم المكونات وصحيح البناء، وبذا تتم له ما سماه علماء العربية بالفصاحة أو ما أطلق المؤلف عليه "الصحة الداخلية للنص".

المبحث الثاني: التعبيرية

التعبيرية بمفهوم الكاتب – لا تعدو أن تكون محاولة لاحتواء الكلام على عناصر معينة، ترقى به عن مجرد الصحة اللغوية المطلقة، وتصل به إلى درجة أكثر قبولا وأعمق وقعا وتأثيرا لدى السامعين. وهذه المحاولة تحتاج إلى معرفة مناسبة بأسرار اللغة، وإلى خبرة ودربة فى التعامل مع ما لدى المنشئ من مخزون لغوى.

ويتم تحقيق هذه التعبيرية بحسن الاختيار أو الانتقاء لعناصر الكلام ومكوناته، ولنماذج نظمه وهندسته، وهذا الاختيار ليس صعبا أو مستحيلا، إذ إن اللغة (أية لغة) فى مقدورها أن تقدم أكثر من صورة أو أكثر من أسلوب للتعبير عن المعنى الواحد بوجه عام، وإن كانت هذه الصور أو الاساليب تتفاوت فيما بينها من حيث ملاءمتها للتعبير عن الحالة المعينة. ويبقى على المنشئ الذواقة العارف بالصنعة أن يختار.

والاختيار ليس مقصورا على مستوى لغوى دون آخر. إنه يغطى ساحة اللغة كلها، صوتيا وصرفيا ونظما وتركيبا. فالأصوات تختلف طبائعها وسماتها من صوت إلى آخر، وكذلك الحال فى الألفاظ والصيغ والتراكيب. وقد أورد المؤلف فى هذا المبحث طائفة من الأمثلة لكل هذه المستويات، لإرشاد المنشئ إلى اتباع السبيل الأوفق والأنسب لما يختار، حسب الحال المعينة.

المبحث الثالث: الصحة الخارجية

التعبيرية بالمفهوم السابق من شأنها أن ترشح الرسالة للوفاء بأغراضها ومقاصدها على أكمل وجه، وتصل بها إلى مطابقتها للمقام الاجتماعى الذى يناسبها وهنا يتحقق للكلام عنصره المتمم لصحته صحة كاملة. هذا العنصر هو ما يسميه المؤلف "الصحة الخارجية" للنص. والصحة الخارجية بهذا المعنى – أى مطابقة الكلام لمقامه – لا تقل أهمية عن "الصحة الداخلية"، إذ ليس يكفى بحال أن يأتى الكلام صحيحا لغويا. أى من حيث مجرد تأليفه ونظمه، بل لابد له من مراعاة ما يلفه من ظروف ومناسبات خارجية تحيله أداة تواصل إنسانى، ووسيلة تفاعل مؤثر بين المرسل والمستقبل، ليتحقق له الهدف المقصود والغرض المطلوب.

المبحث الرابع: بين اللفظ والمعنى

القول فى العلاقة بين اللفظ والمعنى قديم حديث تناوله الدارسون من وجهات نظر مختلفة. رأى بعضهم أن هناك علاقة طبيعية بين اللفظ والمعنى، ويميل إلى هذا الرأى فى القديم "ابن جنى" ويسوغ رأيه هذا بقوله بأن هذه العلاقة كانت موجودة وثابتة وإن أصابها التغير إلى حد ما من وقت إلى آخر. ويرى آخرون أن ليست هناك علاقة طبيعية من هذا القبيل، غير أن هناك بعض الألفاظ التى

توحى أصواتها بمعانيها. وذلك من صنع الإنسان نفسه حيث يحاول أحيانا محاكاة الطبيعة بأصوات تلائمها، أو تحكى صداها، كالخرير والحفيف والقهقهة والصرير والصهيل.. إلخ.

وهناك فريق ثالث لا ينظر إلى هذه الناحية، أى العلاقة بين الألفاظ ومعانيها، ويركزون اهتمامهم على طرائق التاليف من حيث السبل والحبك، بحيث يأتى ملائما ومناسبا للمعنى المراد بيانه والتعبير عنه، والمؤلف مع هذا الفريق.

الباب الثاني: التشكيل الصوتى للكلام. ويقع فى أربعة فصول:

الفصل الأول: شخصية المتكلم

ويعنى المؤلف بشخصية المتكلم أمام الجماهير، صغيرة أم كبيرة، أن يكون مؤهلا للحديث، بحيث يلقى قبولا وترحيبا من الحاضرين. ولا يكون ذلك إلا إذا كانت لديه مجموعة من الإمكانات التى تعينه على النجاح فى أداء رسالته.

من هذه الإمكانات وأهمها: الإمكانات المعرفية والنفسية والفسيولوجية والتربوية. تتحقق الإمكانات المعرفية فى إجادته للغته ومعرفته المناسبة بموضوع الحديث وظرفه ومقامه، وأن يكون مدركا لأبعاد الموضوع ونقاطه، قادرا على الربط ينها، بحيث تبدو كلا متكاملا. أما فيما يتعلق بالإمكانات النفسية، فعلى المتحدث أن يكون واثقا بنفسه وموقعه،

محاولا إزاحة الشعور بالخوف أو الخجل. والإمكانات الفسيولوجية تعنى تمتع المتحدث بجهاز نطق سليم، وقدرته على تفعيل هذا الجهاز، بحيث تؤدى أعضاء هذا الجهاز وظائفها وفقا للضوابط المرسومة لأصوات اللغة المعينة. وعيوب النطق الفسيولوجية كثيرة. فقد تكون فى الشفاه أو الأسنان أو الأنف أو اللسان أو الحنجرة إلخ. وهذه عيوب يمكن التخلص منها أو من بعضها باستشارة أهل الاختصاص أو بمحاولة التدريب المستمر على النطق الصحيح.

وقد يرجع العيب فى نطق بعض الأصوات إلى عوامل تربوية فقد تكون أعضاء النطق عند المتكلم سليمة من الناحية الفسيولوجية، وحالته النفسية طبيعية ولكنا مع ذلك نلحظ شيئا من العجز أو القصور أو نوعا من العيب فى نطق بعض الأصوات نطقا صحيحا. كما هو كثير الحدوث بين الصغار وطلاب المدارس وغيرهم، ممن حرموا فى بيوتهم أو بيئاتهم الضيقة من القدوة الصالحة أو الإرشاد الموجه إلى كيفيات النطق الصحيح.

الفصل الثانى: البناء الصوتى للكلام، ويقع هذا الفصل فى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: جهاز النطق

جهاز النطق هو الأداة الأولى والأخيرة فى التشكيل الصوتى للكلام، بناء وطلاء، ومن ثم كان من الحتم التعريف بهذا الجهاز

وأعضائه مع الإشارة إلى شيء من وظائف كل عضو فى عملية إصدار الأصوات.

وقد أشار المؤلف إلى مجمل هذه الأعضاء وبينا أنها تكوّن كلا متكاملا، وإن كان لكل عضو دوره المميز.

المبحث الثانى: الأصوات أو لبنات الكلام

الأصوات هى لبنات الكلام التى تشكل المادة الأساسية للكلام. عرف المؤلف "الصوت" اللغوى بمفهومه العام، ثم عرف بأصوات اللغة العربية، وقام بتصنيفها حسب طبائعها ومميزاتها.

المبحث الثالث: أصوات ذات سمات خاصة

من المعروف والمقرر أن هناك أصواتا معينة فى اللغة العربية تنفرد بخصوصيات بارزة. من أهم هذه الخصوصيات ظاهرة التفخيم. وهى ظاهرة ذات أثر كبير فى بعض الأصوات نطقا، وقد يتعدى الأمر فى بعضها إلى التأثير فى المعنى.

الفصل الثالث: التلوين الصوتي للكلام (أو الطلاء)، ويقع فى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: النبر

النبر ملمح من الملامح الصوتية التى تكسو المنطوق كله، وتكسبه

خواص تنبئ عن معناه ومطابقته لبنيتـه ومقامـه. والنـبر Stress يعنـى نطق مقطع من الكلمة بصورة أجلى وأوضح من بقية المقاطع، وذلـك طبقا للنظام المقطعى للغة المعينة. فتوزيع النبر على المقاطع يختلف مـن كلمة إلى أخرى، وفقا لتركيبها المقطعى الخاص، ومن شأن نظـام هـذا التوزيع أن يرشد إلى نوع الكلمة وجنسها الصرفى. وقد يفيـد كـذلك فى التفريق بين مستوى من الكلام ومستوى آخر.

وللنبر على مستوى الجملة أهمية خاصة، قد يختلـف توزيعـه، أو تختلف قوته وضعفه، وفقا لأغراض مقامية خاصة، كالتوكيـد لعنصـر من الكلام خاص، أو لبيان المفارقة أو المخالفة فى المعـانى المقصـودة. فقد تخضع كلمات للنبر فـى الجملـة فـى حـين أنهـا غـير منبـورة فـى الأصل، أو يقوى ويشتد نبرها العادى أو الضعيف.

ومعلوم أن لكـل لغـة نظامهـا مـن حيـث مواقـع النـبر وطرائـق توزيعه , طبقا لبنيات الكلم وتركيبها المقطعـى، كمـا تختلـف اللغـات أيضا فى ثبات النبر فى موقعه من الكلمة المعينة وفى تعاور مواقعه فى ذات الكلمة طبقا لجنسها الصرفى.

المبحث الثانى: التنغيم

التنغـيم Intonation هـو موسـيقى الكـلام، أى تلـوين هـذا الكـلام بنغمات تتمثل فى ارتفاعات وانخفاضات تكسو المنطوق كلـه. فـالكلام–

مهما كان نوعه أو مستواه – لا يلقى على مستوى واحد، بل لابد له من طلاء موسيقى معين ينبع عن مبناه ومعناه، وفقا للمقام المعين.

والتنغيم خاصة صوتية فى الأساس، ولكنها خاصة ذات أهمية بالغة فى الإتيان بالكلام مطابقا لمقامه وحاله. فموسيقى الكلام المادح تختلف عن موسيقى الكلام القادح، ونغمات التعجب غير نغمات الرضا والارتياح، والتلوين الموسيقى عند الغضب غيره عند السرور والفرح إلخ.

وأهم من هذا كله، أن للتنغيم دورا ملحوظا لا غنى عنه فى التحليل النحوى للكلام.

المبحث الثالث: الفواصل الصوتية

ويقصد المؤلف بالفواصل الصوتية الوقفة والسكتة والاستراحة أو تعديل النفس وتكييفه. والفواصل الصوتية بهذا المعنى عنصر من عناصر الطلاء أو التلوين الصوتى الذى يكسو المنطوق كله.

والفواصل الصوتية لا تصح ولا تكون فى موقعها المقبول إلا بمراعاة جانبين مهمين، يتمثلان فى طبيعة المنطوق – جملا وعبارات – من حيث نظمه وتركيبه، ومن حيث المعنى الذى يحمله هذا النظم وذاك التركيب.

ولكل من هذه الفواصل الثلاث حدود وضوابط تخفى على كثير من المتكلمين لعدم الخبرة الكافية فى الأداء، أو لعدم إدراك هيئات التراكيب ومدى استقلالها بعضها عن بعض.

الفصل الرابع: الإلقاء

وتحدث المؤلف فى هذا الفصل عن توصيل الرسالة نطقا جهريا، أو الإلقاء، والإلقاء فى صورته النهائية فن، ولكنه فن يعتمد على أسس معرفية ذات شأن كبير فى تحقيق هذه "الفنية"، ورسم خطوطها وخيوطها التى تشكلها عملا مميزا فى توصيل الرسالة.

لابد للمتحدث فى الجماهير أو إلى الجماهير أن يكون عارفا بلغته معرفة تعدل قدره وقدر المستمعين، من حيث ضوابطها وقواعدها المعروفة المألوفة بناء وطلاء. وهذا يعنى تمكنه من طرائق نظمها وهندستها، وقدرته على تشكيل لبنات هذا النظم والإتيان بها على وجه سليم، من حيث مادتها وطبيعتها المميزة لها. وعليه بعد أن يكسو هذا البناء كله بالألوان الموسيقية، أو أن يختار الطلاء المناسب له، ولموقعه وقيامه. أو بعبارة أخرى، على المتحدث أن يكون عارفا بقواعد التأليف للكلام، وكيفيات نطق الأصوات أو اللبنات، مع حصافة بالغة فى صقل مؤلفه وتجويده بإخراجه باللون الموسيقى المميز له.

قد يكون المتكلم عارفا بل متقنا لقواعد التأليف، وضوابط النطق بناء وطلاء، ولكن تنقصه الكفاية فى تفعيل هذه المعرفة والإفادة منها

على الوجه المرغوب، أو المقبول. ومعناه أنه محروم من فنية كيفيات الإفادة عميا من هذه المعرفة المخزونة فى ذهنه.

هذه الفنية لا تأتى ولا تكون بمجرد المعرفة النظرية، بل لابد لها من المحاولة والتجريب المستمرين الدائمين، إذا كان للمتحدث أن ينضم إلى قائمة المتحدثين الأكفاء. فنية الإلقاء أو جودته ليست بالأمر الهين إذ إن للإلقاء صورا وأنماطا متعددة بحسب الحال والمقام، وكلها فى حاجة إلى خبرة ودربة.

فإلقاء الخطب والبيانات الرسمية لها لون من الأداء، ولمخاطبة الجماهير العامة لون آخر، والحديث فى الأفراح يختلف عن الحديث فى الأتراح، ومخاطبة الجاهل غير مخاطبة العارف، وإلقاء الشعر غير إلقاء النثر إلخ.

وفى كل الحالات، ينبغى أن يدرك المتحدثون إلى الجماهير أن الإلقاء لا يعنى رفع الصوت أو الزعيق أو الصراخ، أو التشنج أو الانفعال غير المناسب. إنه توصيل الرسالة نطقا فى صورة متزنة تعدل المقام وتفى بأغراض الرسالة. لكل مقام مقال، ومن أهم عناصر جودة المقال أداؤه نطقا بصورة تعدل مقامه وتلائم أغراضه.

وللإلقاء صور وأنماط فقد يكون من مادة مكتوبة أو مادة معنصرة، أو ارتجالا. والحوار نمط من الإلقاء ذو طبيعة خاصة.

الباب الثالث: بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية. ويقع في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأحاديث الجماهيرية. وبه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأحاديث المعرفية

يعنى المؤلف بالأحاديث المعرفية تلك الأحاديث التى توجه إلى الجماهير بقصد التعريف أو عرض الحقائق للتوضيح وزيادة المعرفة أو إضافة شيء جديد. وهى بهذه الصفة ينبغى أن تكون موضوعية، تكسوها الدقة والوضوح والتشويق، وبعد النظر، بوصف أن ما تقدمه إن هو إلا حلقة من سلسلة لها ماض، وارتباط بالمستقبل.

والأحاديث المعرفية ذات أنماط متعددة. أشار المؤلف إلى أمثلة منها بقصد التوضيح، لأهميتها وكثرة وقوعها، كالأحاديث الدينية والأحاديث الإعلامية والمحاضرات.

المبحث الثاني: الأحاديث البرلمانية

البرلمان بيت الشعب، بجناحيه – مجلس الشعب ومجلس الشورى– ومن ثم ينبغى أن تكون أحاديثه ومناقشاته ممثلة خير تمثيل لحياة الشعب فى عمومه، خالية من التعصب أو الانحياز.

وللعمل فى البرلمان ضوابط ومعايير محددة ينبغى أخذها فى الحسبان دائما، حتى يصبح الجميع أشبه بجوقة موسيقية متناسقة

الأنغام واللحون. من هذه الضوابط والمعايير ما تتعلق بالأعضاء، وأخريات تنصرف إلى الإدارة وأسلوب العمل.

ومن المحتم أن تكون لغة الأحاديث بالبرلمان هى لغة الأمة فى عمومها. وهى فى حالتنا نحن العرب – اللغة العربية الفصيحة – قد يشق أو يصعب على بعض الأعضاء أن يسلكوا هذا المسلك القومى أحيانا، وهو نقص فى كفايتهم بلاشك ، إذ إن "بيت الأمة" هو القدوة والمثل الأعلى وهو الملجأ والملاذ، وهو الراعى لكل مصالح الأمة ومقوماتها. ومن أولى المقومات وأهمها اللغة القومية.

ومع ذلك يمكن تدارك هذا النقص بالتدريب والتجريب والمحاولة، ولا مانع عند الضرورة من الانتحاء نحو العامية، شريطة أن تكون عامية على درجة مقبولة من الرقى والعمومية، حتى لا تختلط الأمور ببلبلة الألسن والرطانات المتنافرة المحلية.

المبحث الثالث: أحاديث المناسبات

أحاديث المناسبات كثيرة، وهى تخضع لما تخضع له الأحاديث العامة من أساسيات وضوابط كالإعداد الجيد للحديث وأدائه أداء مناسبا للمقام والظرف والحال.. إلخ ولكنها مع ذلك تنماز من غيرها بخصوصيات تتمثل فى كونها محكومة بنوعية جمهورها وزمانها ومكانها والأحداث الخاصة التى صنعت من أجلها.

ومن ثم ينبغى أن تأتى أحاديث هذه المناسبات على وجه يناسب هذه الخصوصيات من حيث مادة الحديث ومحتواها ولغته والوقت المخصص له.

الفصل الثانى: الإذاعة والتليفزيون

للإذاعة (بوسيلتيها الراديو والتليفزيون) دور غاية فى الأهمية فى حياة الناس، إنها أداة إخبار وإعلام وتثقيف وتعليم وترفيه كذلك، وكلمتها هى كلمة الأمة كافة، بلا فرق بين طبقة وأخرى. وهى أيضا ذات تأثير كبير فى حياة الناس. ذلك أنها منحت ما لم تمنحه هيئة أو مؤسسة أخرى من سعة الانتشار وامتياز الموقع. إنها قدوة فى كل ما يصدر عنها، ومن ثم ينبغى أن يجرى العمل بها على وجه دقيق محسوب، وأن تكون لها ضوابط محددة ينبغى العمل بها، حتى تؤدى دورها المأمول..وحصر المؤلف هذه الضوابط فى ثلاثة أشياء، هى التخطيط والتنسيق، واختيار المتحدثين، وتوقيت البرامج.

وللتليفزيون خاصته المميزة التى توجب مراعاة بعض الضوابط التى من شأنها أن تزيد العمل فائدة ومتعة كذلك. المتحدث فى هذا الجهاز لا يرى المشاهدين ولكنهم يرونه، ومن ثم كان عليه أن يطوع نفسه ويكيف وضعه بحيث يلقى قبولا وارتياحا.

أما الخطاب الإذاعى (فى الجهازين) فهو ذو أهمية خاصة. إن هذا الخطاب مرآة القوم جميعا بعاداتهم ومبادئهم وتقاليدهم، ومن ثم

كان من الحتم أن يطرح هذا الخطاب بصورة تلتزم بهذه الأطر القومية المقررة، وأن تكون مادته وافية بالأغراض التى صنعت من أجلها، فللأطفال لون من الكلام وللنساء لون آخر وللعامة أسلوب وللخاصة سبيل آخر. ولكل من خطاب الإعلام والحوار أسلوبه المعين.

وللغة الإذاعة شأن أى شأن! إنها الأداة الفاعلة المعبرة الواصلة المؤثرة. ولهذا كان من الضرورى مراعاة الأمر فيها، من حيث مستواها وأسلوبها وكيفيات أدائها. كثيرا ما يثار السؤال: بأى مستوى من اللغة العربية نطرح كلامنا وأحاديثنا إلى الجماهير الفصيحة أم العادية؟ ويرى المؤلف وجوب الالتزام بالفصيحة، على أساس أن الإذاعة قدوة، أو هى مدرسة متنقلة، من شأنها أن ترعى اللغة القومية وتعمل على تنميتها ونشرها وجعلها قريبة المنال من الخاصة والعامة على سواء. هذا الالتزام حتم وواجب قومى، وبخاصة فى البرامج الإعلامية والتثقيفية والتعليمية. أما المنوعات وبرامج الترفيه فلا مانع مؤقتا من الترخص فى شأنها، باستخدام اللسان العامى، شريطة أن يكون هذا اللسان لسانا عاما، خاليا من الرطانات والألوان اللهجية المختلفة، وأن يكون على درجة مقبولة من الجميع فى معناه ومبناه.

الفصل الثالث: الأغنية

الأغنية ضرب من الكلام الإنسانى متفرد فى طبيعته وخواصه وآثاره. إنها تنماز من غيرها من صنوف الكلام بخواص معينة، أهمها

ثلاث، تتمثل فى نظمها وطرائق تأليفها، وفى كونها تجسيدا حيا لكل ما يجرى فى المجتمع من أوجه نشاط وأنماط سلوك، وكونها تصويرها صادقا لما يختلج فى النفوس من آمال وآلام. كما تنفرد بقوة تأثيرها على المسار اللغوى تقدما وتخلفا وازدهارا وانحطاطا وتماسكا وتفرقا.

وللأغنية بالذات تأثير كبير فى المسار اللغوى فى المجتمع المعين. ذلك أنها بنظمها الخاص وإيقاعها المتميز، تلقى فى جو مشحون بعوامل الجذب والمتعة والراحة النفسية، ومن ثم تنفذ كلماتها إلى السمع والقلب معا، بما تنتظمه من صوت جميل وموسيقى حالمة ولحن مطرب. وكونها كلاما مسموعا بهذه السمات الفريد يضعها على قمة العوامل الفاعلة فى التثقيف اللغوى. تلقى كلماتها ويسمعها العامة والخاصة، بل يرددونها، فتستقر آثارها فى الذهن، فتضيف إلى محصولهم اللغوى، أو تصقله وتهذبه، أو تنحو به نحوا مغايرا، وفقا لما تمدهم به من مادة وأنماط تعبير.

ومن هنا كان الاهتمام الكبير بلغة الأغنية التى ينبغى أن تأتى على وجه مقبول، بل على مستوى يصلح ولا يفسد، يقوى ولا يضعف، يوحد ولا يفرق. وسبيل ذلك إنما يكون بتأليفها وصوغها بلغة القوم أجمعين التى تجمعهم على كلمة سواء، والتى تخلو من التنافر والشذوذ فى مبناها ومعناها، المبرأة من الإسفاف والخلط.

(٩) مجمعيات

دار غريب – القاهرة، ٢٠٠٤م

٣٢٠ صفحة، ١٧×٢٤سم

ضمَّن الدكتور بشر هذا الكتاب بعض جهوده اللغوية التى ترتبط بأعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وقد بين فى واجهة الكتاب الدافع الذى كان وراء إخراج هذا الكتاب، حيث يقول: إن من حق أى إنسان – بل من الواجب عليه – أن يرعى آثاره ويحافظ عليها بالطريق الذى يراه مناسبا، بوصفها منبهة على موقعه فى مجتمعه الصغير أو الكبير، ومرآة عاكسة لجهوده وطبيعة هذه الجهود، حتى يمكن تصنيفها وتعيين موقعها فى الإطار العام الذى تنتسب إليه.

ويقع الكتاب فى فصلين:

الفصل الأول: من أعمال لجنة الألفاظ والأساليب

وقد ضمن الدكتور بشر هذا الفصل بعض جهوده المقدمة لهذه اللجنة من لجان المجمع حيث تتركز مسئوليتها فى اتجاهين مختلفين فى المسيرة؛ متفقين فى القصد والهدف، يتمثل هذا الهدف فى تنمية اللغة وتنشيط ثروتها اللفظية والأسلوبية وتجديد بنائها بتلوينه بما يقتضيه الحال والزمان من ألوان تكسبها حيوية وتفاعلا مع ما يجرى حولها فى مجتمعنا من أفكار ورؤى جديدة.

ومن هنا كان على اللجنة متابعة هذه الألوان المستحدثة للنظر فيها وفحصها حتى تتبين ملاءمتها واتساقها مع جسم اللغة وبنائها الأصيل. وتتم هذه المتابعة بطريقين متكاملين.

أولهما يتمثل فى التقاط ما يستحدث من ألفاظ وأساليب لم تسمع أو لم تستخدم من قبل، وليس لها وجود بنصها فى المعجمات، ولكنها مع ذلك تجرى على سنن العربية ولا تخالف أصلا من أصولها، مثل "شعر الكلمة" أى صيرها أو منحها سمة الشاعرية. أما الطريق الثانى فيتمثل فى التقاط بعض الألفاظ والأساليب المحسوبة من العاميات ومحاولة تفصيحها بربطها بأصولها الفصيحة دون تعسف أو مبالغة، ومن أمثلة ذلك كلمة "استعبط " بمعنى ادعى العباطة، واستعبط فلانا تصوره أو ظنه عبيطا.

الفصل الثانى: أحاديث مجمعية

وينتظم هذا الفصل ثلاثة أنماط من الأحاديث:

النمط الأول: الاستقبال والتكريم والتأبين. وهى الكلمات التى ألقاها الدكتور بشر فى المجمع مستقبلا أحدا من المجمعيين الجدد أو مكرما إياه.

النمط الثانى: الهيئات اللغوية . وهى كلمات ألقاها الدكتور بشر فى مناسبات مجمعية عامة.

النمط الثالث: بين مؤتمرين. وهى الكلمات التى ألقاها الدكتور بشر بوصفه الأمين العام للمجمع فى افتتاح الدورة السنوية للمجمع.

(١٠) التفكير اللغوى بين القديم والجديد

دار غريب – القاهرة، ٢٠٠٥م

٥٣٦ صفحة، ١٧×٢٤سم

ينتظم هذا الكتاب بحوثا ودراسات لغوية تغطى مساحة واسعة من الزمن، وأفكارا ذات ألوان ومناح متعددة، صنفت فى أوقات مختلفة بوصفهما قضايا أو نقاطا لها قدرها وأهميتها بالنسبة للدارس اللغوى، متخصصا كان أم ناشئا فى الحقل، يحاول طرق أبواب هذا المجال الواسع العريض، المتشعبة أطرافه وجنباته: التفكير اللغوى بين القديم والجديد، مع وقفات متأنية عند تلك المبادئ والاتجاهات أو المناهج التى تقيم هذا البناء الكبير الموسوم بـ"علم اللغة" فى الشرق والغرب على سواء، مع إلقاء ضوء كاشف على جهود العرب فى دنيا البحث اللغوى.

ويقع الكتاب فى قسمين، مسبوق كل منهما بمدخل خاص.

القسم الأول: في الدرس اللغوى الحديث، ويقع هذا القسم فى مدخل وأربعة فصول

المدخل: التفكير اللغوى فى القديم، مساره وتطوره.

الفصل الأول: علم اللغة: مفهومه وحدوده

وقد أشار الدكتور بشر فى هذا الفصل إلى أن لعلم اللغة جذورا وبذورا اشترك فيها كثير من الدارسين فى مختلف أنحاء العالم، وكان لكل من الأوربيين والأمريكان دور بارز فى تشكيل هذا العلم بصورة ما، حتى جاء دى سوسير فأحدث انقلابا واضحا فى الدرس اللغوى كانت نتيجته التشكيل الواضح لهذا العلم الموسوم بـ"علم اللغة"

كما أشار فى هذا الفصل إلى موقع علم اللغة بمفهومه الحديث فى العالم العربى.

الفصل الثاني: فى المدارس اللغوية

وبه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: دى سوسير وحواريوه، وقد تحدث فيه عن دور دى سوسير وتلامذته فى تشكيل علم اللغة بمعناه الحديث.

المبحث الثانى: الخالفون، وقد تحدث فيه عن دور جمع من اللغويين جاءوا بعد دى سوسير فأفادوا من أفكاره ومبادئه مع بعض المحاولات المبذولة منهم لابتداع أفكار خاصة تجمع بين التقليد والتجديد.

المبحث الثالث: اللاسوسيريون، وهم من أتوا بمناهج للدرس وألوان من الفكر اللغوى يرشحهم للاستقلالية فى هذا المجال.

الفصل الثالث: فروع علم اللغة

وبه مبحثان:

المبحث الأول: التفريع بحسب المادة اللغوية، وتحدث فيه عن الفروع التى يتركز عملها كلها على المادة اللغوية ذاتها من أصوات وصرف ونحو، مع تعريف موجز لهذه الفروع جميعا.

المبحث الثاني: تفريعات بينية، وتحدث فيه عن فروع علم اللغة المرتبطة بالتخصصات الإنسانية المختلفة، مثل: علم اللغة النفسى، وعلم اللغة الاجتماعى، وعلم اللغة الجغرافى،....إلخ.

كما تحدث عن فروع علمية أخرى لعلم اللغة ، مثل: علم اللغة العام، وعلم اللغة الخاص، وكذلك علم اللغة النظرى وعلم اللغة التطبيقى.

الفصل الرابع: في مناهج الدرس في علم اللغة

وقد أشار الكاتب فى هذا الفصل إلى المناهج ذات الانتشار الواسع التى يعتمدها الثقات من اللغويين، ومنها: علم اللغة التاريخى، علم اللغة المقارن، علم اللغة المعيارى، علم اللغة الوصفى، ... هذا بالإضافة إلى بعض المناهج الحديثة نسبيا مثل: علم اللغة البنوى، وعلم اللغة التصنيفى، وعلم اللغة التوليدى التحويلى.

القسم الثاني: التفكير اللغوى عند العرب

ويقع هذا القسم فى مدخل وخمسة فصول

وقد أشار فى المدخل إلى واقع اللغة العربية فى الوقت الحاضر، ومحاولة بعض الدارسين الأخذ بيدها والارتقاء بها ونشرها بين الجماهير، ثم تحدث عن دور الأسلاف وجهودهم وما خلفوه لنا من تراث ضخم وهائل فى كل فروع اللغة.

الفصل الأول: مستويات الدرس اللغوى ومناهجه

وبه مبحثان:

المبحث الأول: العلاقة بين المستويات، حيث بين الكاتب فى هذا المبحث عمق التفكير اللغوى عند العرب واتساعه، إذ جاءت جل أعمالهم مشتملة على هذه المستويات جميعا ولكنها جاءت منعزلا بعضها عن بعض، فى حين أن هذه المستويات تكون كلا متكاملا يتعلق كل مستوى بصاحبه ويخدمه.

المبحث الثاني: مناهج البحث فى اللغة، حيث بين أن المنهج الغالب فى أعمال العرب كان المنهج المعيارى، ومن المعروف أن هذا المنهج منهج مثالى صعب تحقيقه، ومن ثم اضطروا إلى طلب المعونة من مناهج أخرى وصفية وفلسفية وتأويلية...إلخ فجاء العمل معقدا إلى حد واضح.

الفصل الثاني: في الثروة اللفظية والمعنى

قدم الكاتب فى هذا الفصل أمثلة من جهود العرب فى دراسة الثروة اللفظية ومعانيها.

الفصل الثالث: في الدرس الصوتي

أكد هذا الفصل أن العرب قاموا بدراسة أصوات لغتهم دراسة لم يسبق لها مثيل من حيث الشمول والعمق والدقة.

الفصل الرابع: في الدرس الصرفي

بين الكاتب أن دراسات العرب لهذا المستوى جاءت واسعة شاملة لكل الظواهر التى تنتمى إلى علم الصرف.

الفصل الخامس: رأى في دراسة العربية وتقديمها للمتعلمين

حاول الكاتب من خلال هذا الفصل وضع رؤية علمية لتقديم منهج سهل مفيد فى تيسير قواعد اللغة باتباع منهج محدد لا نحيد عنه فى هذا التقعيد، وهو المنهج الوصفى المبنى على الوصف من نصوص منطوقة أو مكتوبة، ويرى الكاتب أن أصلح طريق لتعليم اللغة للناشئة يعتمد جملة وتفصيلا على تقديم النصوص للدارسين وعرضها عليهم مقروءة قراءة جهرية من معلم ناجح، حيث تكون الفرصة مواتية للاستماع الصحيح والاستيعاب الصحيح. ويعقب ذلك محاولة المعلم استنباط قواعده من هذه النصوص متبوعا كل ذلك بالتدريب الشفهى والكتابى جميعا.

(١١) إذاعيات

دار غريب – القاهرة، ٢٠٠٥م
٣٤٤ صفحة، ١٧×٢٤سم

يتنظم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات اللغوية والأدبية التى قدمها الكاتب إلى الإذاعة على فترات من الزمن مختلفة، وقد قصد الكاتب من نشرها فى هذا الكتاب الإسهام فى نشر المعرفة للجماهير كافة، ويقع الكتاب فى ثلاثة أقسام ذات نسب قريب ويتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا، بوصفها تقع جميعا فى إطار عام واحد هو اللغة والأدب.

القسم الأول: لغة الشعب

ويضم هذا القسم عددا من الكلمات ذات الأصول اللغوية المنوعة التى يستخدمها الكافة فى أحاديثهم اليومية غير ملتفتين إلى هذه الأصول، وقد قام الكاتب برد هذه الكلمات إلى أصولها اللغوية بقطع النظر عن اللغة المعينة التى تنتمى إليها، وقدمت هذه الكلمات إلى الإذاعة بوصفها مركز الدائرة لقصة أو حكاية يقدمها فنانون محترفون فى الإذاعة.

القسم الثانى: نصوص أدبية

تناول الكاتب فى هذا القسم عددا من النصوص الأدبية –شعرا ونثرا– وقام بتحليلها تحليلا لغويا أدبيا مع الإشارة فى كل ذلك إلى ما تنتظمه من أفكار، وما تنبئ عنه من قيم إنسانية واجتماعية وسياسية.

القسم الثالث: شذرات فى الأدب واللغة

وضع الكاتب فى هذا القسم كلمات قصيرة مختلفة الألوان قدمت إلى الإذاعة على فترات من الزمن متفاوتة وهى فى مجملها ذات فائدة محققة بالنسبة للإذاعيين ومن لف لفهم فى التعامل مع الكلمة المنطوقة على وجه الخصوص.

(١١) دراسات فى علم المعنى (السيمانتيك)

مكتبة الشباب - القاهرة، ١٩٨٨م

٢٠٧ صفحة، ١٧×٢٤سم

ضمن المؤلف هذا الكتاب مجموعة من الأبحاث المتعلقة بدراسة علم المعنى، حيث تحدث فى بداية الكتاب عن علم المعنى واتجاهات البحث فيه، ثم تحدث عن علم المعنى فى الدراسات اللغوية، ثم أتبع ذلك بحديث عن المعنى اللغوى.

ثم ختم المؤلف الكتاب بحديث عن بعض مشكلات المعنى، وهى:

أولا: بين اللفظ والمعنى

ثانيا: المسرح اللغوى وسياق الحال

ثالثا: تعدد المعنى وصوره

وقد نفدت كل طبعات هذا الكتاب منذ فترة، ولم يقم المؤلف بإعادة طباعته بعد ذلك.

(١٢) منهج فى التطور اللغوى

فى ضوء علم اللغة التاريخى

دار الثقافة العربية – القاهرة، ١٩٨٧م

١٤٨ صفحة، ١٧×٢٤سم

هذا الكتاب مجموعة من المحاضرات المتعلقة بموضوع التطور اللغوى قد تشكل فى جملتها منهجا لهذا الموضوع فى ضوء علم اللغة التاريخى. ففكرة التطور اللغوى تمثل ركنا أساسيا ومهما من علم اللغة التاريخى، وقد انتظم هذا الكتاب ثلاث نقاط رئيسية يكمل بعضها بعضا ويرتبط بعضها ببعض، وهى:

أولا: فكرة تاريخية عن الدراسات اللغوية.

ثانيا: فى التطور اللغوى ومظاهره. وقد أشار المؤلف فى هذا المبحث إلى تنوع اللغات وتصنيفها إلى فصائل، كما تحدث عن تنوع اللغة الواحدة إلى لهجات أو مستويات مختلفة.

ثالثا: فكرة الصواب والخطأ فى اللغة.

وقد نفدت طبعات هذا الكتاب منذ مدة، ولم يقم المؤلف بإعادة طبعه بعد ذلك.

ملحق الصور[1]

(١) تعكس هذه النماذج من الصور الفوتوغرافية كثيرًا من جوانب حياة الدكتور بشر العلمية والاجتماعية.



المرحلة الابتدائية

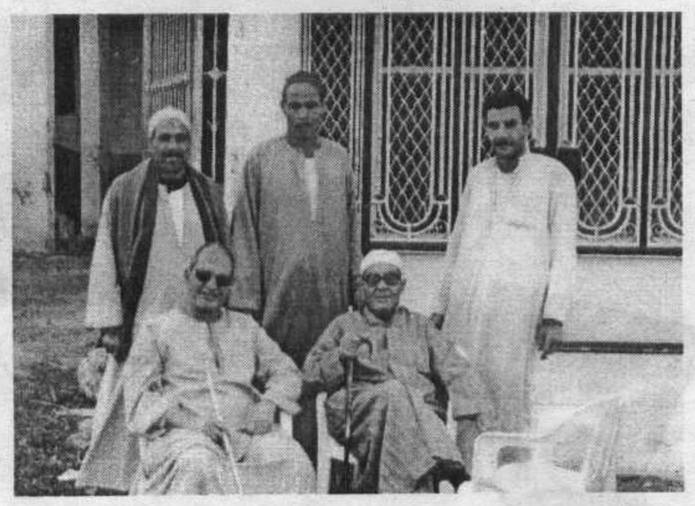


بعد الحصول على الماجستير

فى لندن



في قرية (محلة دياى)





في حفل زواج ابنه

الجوائز الرسمية



جائزة الدولة التقديرية



جائزة صدام

مع طلابه يحاضرهم
ويشاركهم أنشطتهم

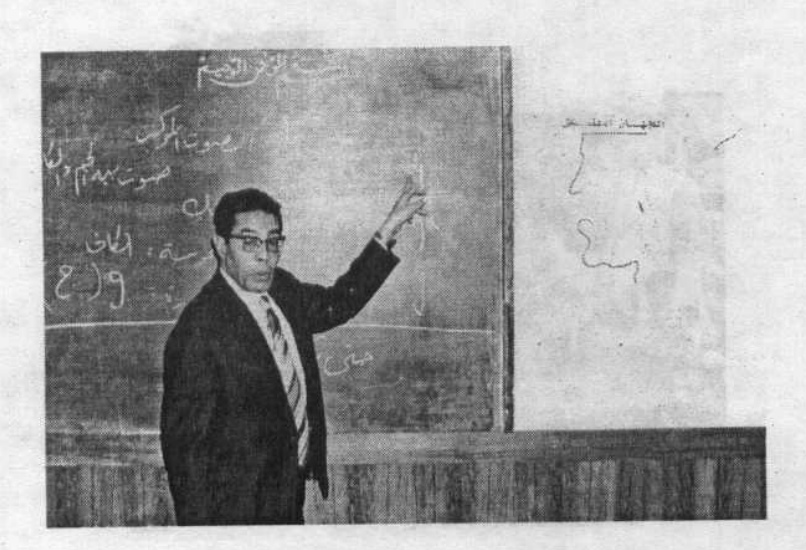





مرحبا بكم
كمال بشر
الأستاذ الدكتور















فى المؤتمرات والندوات والسفريات





















فى مجمع الخالدين












بلحبيب رشيد

